بطولات من بلاد العرب

فاتح المغرب

موسى بن نصير

جروس برس

طرابلس - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٩٢

جروس برس
طرابلس - لبنان

١ ـ موسى بنُ نصير قائد الأسطول العربي

عـاد نصـيرٌ إلى خيمتِـه، فـوجـد ابنَـهُ مـوسى، وعمرُهُ سبعُ سنواتٍ، حافي القـدَمَين، حـاسرَ الرأسِ يتَمنْطَق بسيفٍ خشبيّ صنعَه بنفسِه.

ـ أينَ كنتَ، يا أبي؟

ـ عند معـاوية.

ـ كيفَ ذَهَبْتَ إليْهِ، وقـد تمنَّعْتَ من الخـروج معه لمحاربة علي؟

ـ أَلم تعلمْ، يا بنيّ، أنّه استَدْعاني إلَيْه؟

ـ أما زلتَ قائداً في جيوشِه؟

ـ إعْلَمْ، يـا مـوسى أنَّ الأمـيرَ داهيةٌ، عـالمٌ بطبائعِ النّاس، يعذُرُ، إذا بدا العذرُ مقبولاً.

ـ ماذا قلتَ له؟

ـ هذا شأنٌ بَيْني وبَيْنَه.

ـ هل أنتَ مؤمنٌ بحقِّه في الخِلافة؟

ـ لو لمْ أكنْ مؤمناً لما وقفْتُ بجانِبِهِ، لأنّي لم، أعتدْ أنْ أجرِّد سيفي دفاعاً عن باطل ودعماً لزائل. وعلى المرءِ قبلَ المباشرةِ بأيِّ عمل أن يقول بينه وبين نفسه: «أهذا العمل يُرضي اللّه؟»

ـ ومتى ستأْخُذني معك إليه؟

ـ وماذا تريدُ منه؟

ـ أودُّ أنْ أكونَ جندياً في جيشه.

ـ الصِّغارُ لا يحاربون.

ـ خذْ سيفَك يا نصير لأُريَك أنّي لستُ صغيراً.

وامتشق(١) موسى سيفه،وراح يسدِّدُ لأبيه الضربة تلو الأُخرى، وهذا ذاهلٌ لا يَدْري كيفَ يدافعُ عن نفسِه. امتلأ قلبُه فرحاً، وقال:

ـ ستكونُ، يا موسى، مَفخرة هذه الأُمّة.

ـ يا أبي، أَتَصْدُقُني القَوْل؟

ـ كيف لا؟

ـ لماذا يتحارب النَّاس ويقتَتِلُوْن؟

ـ كبرياءُ البشر وعجرفتُهم[٢] تمنعان من يدَّعُوْن أنَّهم قادةُ الشعوبِ أن يسوُّوا خلافاتِهم بالحوارِ والحُسْنَى.

ـ لعبة الحرب، لعبةٌ خطرة.

ـ هذا ما أرى، وفيها مُعْتدٍ ومُعْتَدى عليه.

ـ والاثنان يدّعِيانِ أنَّهما يَنْصُران الحقَّ ويدافعان عن الحريّة.

ـ هل أخبرتُك، يا أبي، أنّي تغلَّبْتُ على الأعداءِ.

ـ أين؟

ـ في الحيّ.

ـ وهل في الحيِّ أعداء؟

وضحك موسى ضحكة بريئةَ، وقال:

ـ استنبطنا لعبةَ الحربِ ونمارسها.

ـ لعبة الحرب قديمة... وُلِدَتْ منذُ وَلِدَ الإنسان.

لم يكفَّ موسى عن لعبة الحرب يوماً،بل ظلَّ يضطلع بها ويمارُسها طيلةَ حياته.

أخذ معاوِيَة الْبَيْعَةَ في الكُوْفة، بعدَ التَّحكيم وأدرك الحسَنُ بنُ عليّ أنْ لا قِبَلَ لَهُ(٣) بمقاوَمَته. فتنازل عن الخلافةِ حَقْناً لِدِمَاءِ العرب، وارْتَحَل من ثَمَّ إلى المدينة حيثُ لَزِمَ بَيْتَه.

انصرف معاوية لساعتِه إلى توطيدِ دعائم، دولتِه وتوسيعِ رُقعَتِها واستكمالِ الفتوحِ. وأدْرَك بثاقبِ نظرِهِ، أنْ لا غنى للعرب عَنِ البحرِ، فرأى أنَّ الواجبَ يدعوه إلى امْتِلاكِ أسطولٍ حربيٍّ ضخم يستطيع بواسطته غَزْوَ البلدانِ البعيدة وفَتْحِ الثُّغُورِ الآهِلَة وحمايتها مِنْ هَجماتِ الرّوم. فكيف العملُ والعربُ يأْنفُوْن البحرَ، ويبتعدونَ عنه إذْ لمْ يسبقْ لَهُم

أَنْ خاضوا عُبَابَهُ؟ وهـل مِنْ عقبةٍ يُمْكِنُهَا أنْ تُثَبِّطُ من همَّةِ معاويةَ؟

ضعفـاءُ النفوسِ وحـدهم يخافونَ ويعـترفـونَ بالعجز ويَستَسْلِمُوْن للخذلان.

وقـال بينه وبـين نفسه: سُكّـانُ سَوَاحِـل الشَّام نشيـطون خبيـرُوْنَ بشؤونِ البحـر وبِنـاءِ السّفنِ ومـا يتّصل بها.

وأوفد رسلاً إلى المرافىء والثُّغورِ الشّاميَّة بعد أن أَوْصـاهَـم قـائِـلا: «لا تعـودوا إلى دمشق، إلاّ وقـد اسْتَحْصَلتُم على عهدٍ من بناةِ السّفنِ بتجهيز أسـطول كاملِ العدَّةِ والعدد. فكما امتلكنا الأَرْضَ نستطيعُ أن نسيطرَ على البحر. الروم لا يتـوقّفون عن شنّ الغـارة تِلْوَ الغـارةِ على ثغـوْرِنا، وأودُّ أنْ أَمنعهم منعـاً قاطعـاً عن الاقترابِ من السّاحل.

أمِنْ وَسِيلَةٍ أُخرى؟

كيفَ نتمكَّنُ من ذلـك إنْ لمْ نمْتَلِكْ أسـطولاً حربيّاً مُؤَلَّفاً من بوارج خفيفـةِ الحركـةِ حسنةِ التَّجهيز

رِجالُها مِنْ ذَوي الاختصاص والجرأة.

أيْن نجدُ كلَّ هذا إنْ لَمْ يكن عندَ أهل الشام؟

سأُوفِّر لرسلي، الأَمْوَالَ اللازِمَةَ ـ وغداً سيتّجهون إلى لبنانَ للقيامِ بالمُهِمَّةِ الّتي أُوكلتُها إلَيْهم.

إنكبَّ لبنانيو المدنِ السَّاحِليَّةِ على العمل بجَدٍّ ونشاطٍ لا يعرفون الكَلَلَ. وتحوَّل السَّاحِل إلى خليّة ناشطةٍ فكان المارُّ يشاهد أولئك العمّال حُفاةً نصْفَ عُراةٍ، يقُوْمُونَ بأعمالِهِم المعتادةِ وهم يُنْشِدَوْنَ نَشيدَ البحّارة.

انقضىَ أشهرٌ أربعةٌ والخليّةُ ناشطة ليلاً نهاراً، لا تَهْدأُ ولا يقرُّ لها قرار. الأعمالُ المختلفةُ قائمةٌ على قَدَم وساق.

أَشْجارُ الجبال اسْتُعْمِلَتْ على اختلافِها، وحُوِّلَتْ بأيدي النّجارين إلى ألواح جُمِعَتْ فَتَحَوَّلَتْ بسحرِ ساحر إلى بوارج متينةٍ أنزلَها البحّارةُ إلى الماءِ وهم يتصايحون «يلاّ يا شباب... هيلا هوب... هيلا».

وما أن بلغ معاوية خبرَ ذلك حتّى صاحَ :

ـ الحمد لله، أَصْبَحَ الآن بإمكانِنَا القضاءُ على الرّوم.

ـ سيَحْسبُ الّذين يعنُّ لهم أنْ يقفوا في وجهنا ألف حساب لسَطوتِنا قبلَ أنْ يقدِمُوْا.

ـ سأُدَشِّنُ بنفسي هذا الأسطول.

ـ ماذا؟ ومحاذيرُ البحر؟

ـ العربُ يخافون البحر ولا يجسُرُؤوْنَ على خَوْضٍ عُبابه، وواجبُ القائد أنْ يكونَ في المقدمة لا في المؤخّرة.

ـ تُملي علي أبسطُ واجباتي أن أُبْحِرَ وزوجتي على مَتْنِ إحدى هذه البواخرِ لنقوم برحلة قصيرة كي يتجرّأَ الآخرونَ على رُكوبِ أَهْوالِ البحر في سبيل الوطن.

ـ العربُ، يا مولاي، لمْ يحاربوا قَطْ فوق الماء، وهم لا يُتْقِنُوْن سوى حرب السُّهول.

ـ فليتمرَّسوا بها. سنَعْمَدُ فوراً إلى تعيين رؤساء الوحدات. ولن نتـواني في الاستعانـة بسكان لبنـان من أجل تدريب العرب وتشجيعِهِم على قيـادةِ البوارج الحربيّة.

ـ وهلْ نستطيع الاعتماد على هؤلاء القوم؟

ـ نعم فإنّهم نبلاء، إذا وعدوا وفوا، وإذا أقدَمُوْا فازوا.

ـ أيْنَ وَمَتى، يـا مـولاي تـرغبـون في تـدشـين الأسطول؟

ـ سيكون ذلك في طـرابلس. وأمري إليكم أنْ تتجمّع القطع البحريَّة النّاجزة(٤) في مينائها.

ـ ليكنْ ما تشاؤون.

بعد سنوات قليلة،امتلك معاوية أسـطولاً جبّاراً حـاصر به القسـطنطينية، وسار بـرجالـه لفتح البلدان والجزر البعيدة.

وبلغ مـوسى بن نصير عهـد الشبـاب،فـركب

البحر، وكان لـه من جرأته ما مكَّنـه أن يصبح خبيراً بشؤونه، ثمّ تولّى قيادة إحدى السّفن وراح يتنقّل على متنها بين الثغور المعروفـة على طول السّاحـل الشّامي، ويتمرّس بأعمـال الحرب. ولم يَطُلِ الأَمرُ حتّى قـوي ساعـدُه، وعـلا كعبُهُ،وطـارَتْ لهُ شهـرة بلغت أسماع الخليفةِ الأمَويّ، فأرسل في طلبِه.

لبّى موسى الدّعوةَ سريعاً.

ـ السلامُ على مولاي الخليفة.

ـ أهذا أنتَ يا موسى؟

ـ خادمُ مولاي.

ـ أتعلم، أن نصيـراً والـدَك، كـان من خيـرةِ قادتِنا، وكنّا نمحَضهُ كاملَ ثقتِنا

ـ نعم، يا مولاي.

ـ أرى أنّ صِفاته قد تجسّمتْ فيك وبدَتْ على سيماء وجهك. أتودُّ أنْ تصبح من أصفيائِنا.

ـ إنّه شرف لي.

ـ ما رأيك إذا ولّيناكَ البحر، يا موسى؟

ـ الأمرُ لكم، يا مولاي.

ـ إذاً أنت منذُ الآن قائدُ أسطولنا إلى النصر.

ـ إنَّ هذا ما أشتاقُه وأَحْلُمُ بهِ منذُ نعومةِ أظفاري، سأخوضُ غمار الحروب نصرةً للعرب ورِفْعَةً لمولاي الخليفة.

اخترْ رجالَك، وتولَّ سُفُنَكَ، وتوجّه لِتَوِّك إلى جزيرة قبرصَ.

ـ أمراً وطاعة.

ـ وفَّقَكَ الله، وساعَدَكَ على قهرِ أعدائِنا.

ـ ثِقْ أيّها الخليفة، إنِّي لن أُخيّب لكم ظناً، فلن أعودَ إلى الشّام إلّا وقد تمَّتِ السّيطرة على الجزيرة.

***

خرج موسى من لدن الخليفة الأمويّ، وهو يكاد يطيرُ مِنَ الفرح، واتَّجه إلى طرابلسَ، مع نُخْبةٍ مِنَ الشُّبّانِ الأقوياء. ومنها أبْحَر إلى قبرص، وما أن

اقْتَـرَبَ مِنْها حتَّى واجهَـهُ الأسطولُ القـبرصي. فأطلق موسى صَيْحةَ الحربِ، وأصدَرَ أمـرَهُ بالهُجـوم. اختلط الأسطولانِ، وقفزَ جنـودُ العـربِ إلى سُفُنِ القبارصـةِ، فتـلاحَمُـوْا وقـاتلوا قتـالاً شـديـداً. ولاحق الأسـطولُ العـربِي السّفنَ القبرصّيـةَ حتَّى ثغورِ الجـزيرة، فتَمَكَّنوا مِنْها، ونَزَلُوْا إلى البرِّ حيثُ دارت وقائع طاحنةٌ استبسل فيها الفريقانِ، وسيطَر العرب في النِّهايـة سيطرة كـاملةً على الجزيرة. وما ان استقرَّ بِهِم المقامُ، وهدأتِ الحالُ، وسـاد السِّلم حتّى بدأ مـوسى ببناءِ الأبْـراج والحصونِ والقصورِ، وانصرَفَ إلى إدارَةِ شؤونِها وتنظيمِ أحوالَهـا بحكمةِ القائدِ وَحُنْكة[٥] السِّياسي المقتدر.

طـارت البشائـرُ إلى معـاويـةَ حـاملةً إلَيْـه خـبر انتصارِ قائده موسى ودخوله إلى قبـرصَ التي أصبحت في عدادِ البلدان الخاضعة للعرب. وهكذا ظهر ذلـك القائد المغوار على مسرحِ الأحداث.

٢ ـ موسى يحارب الأمويين

لَمْ يَمِلْ موسى إلى الأُمَوِيِّينَ بعدَ وفاةِ معاويَة،ولَمْ يخاصِمْهم في شيء، بل لَزِم الهدوءَ. ولما مات معاويةُ الثَّاني بنُ يزيد تفكَّكَ عربُ الشّام،وكانوا فيما مضى عصب الدَّولة وقوّتها. ومالَ فريق منهم إلى خالدَ بن يزيد بنِ معاويةَ فيما جنحَ الفريقُ الآخرُ إلى مَرْوانَ بنِ الحكم لحُنْكَتِهِ وحكمته.

احتدم النزاعُ بَيْنَ الفريقَيْن،واشتدَّ فاتَّحدت كلمةُ اليمنيَّة مِنْ كلب وبايَعَتْ القيسيَّة عبدالله بنَ الزُّبَيْرِ بزعامَةِ الضحّاك بنِ قيس الفهري. وكانت صِلاتٌ مِنَ الودِّ تربُط بينه وبيْنَ موسى.

ـ ماذا ترى، يا موسى؟

ـ أرى يا ضحّاك أن تستعِدَّ للحرب.

ـ وفي أيَّةِ جهة تكونُ أَنتَ مع رجالك؟

ـ لن أُوالي بني أُمَيَّـة، بعدَ الّـذي قالـه معاويـة الثاني في النّاس.

ـ هاتِ ما قاله.

ـ إنَّـه قال: «يـا أيها النّـاس! إنّ جدّي معاوية نـازَعَ الأمر أهلَهُ، وَمَنْ هـو أحقُّ بهِ منْـهُ لقرابتِـه وهوَ عليٍ بنُ أبي طالب، وركِبَ بِكم ما تعلَمُون حتَّى أتتْـهُ منيَّته، فصار في قبرِهِ رهيناً بـذنوبـه وأسيراً بخـطاياه. ثمّ قلَّد أبي الأَمر فكان غير أهلٍ لذلك، وركب هـواهُ وأخلفه الأَملِ وقصر عنه الأَجَلُ، وصار في قبرِهِ رهيناً بذنوبه وأسيراً..

ـ وما أنت فاعلٌ إذاً؟

ـ أنا سندُكم حتّى ننتصر أو نُقْتَل.

ـ وما الرأْيُ الآن؟

ـ فلنجتمع،ولنجعلِ الأَمر شوْرى فيا بيننا.

اجتمع الضحَّاك بخيرة رجالِـه،وقرَّ الـرأيُ على أن يتـوجَّهوا إلى مـرجِ راهط، بـالقُربِ من دمشق.

علم مروانُ بالأمرِ،فسَيَّرَ رجالَهُ إلى مرج راهط حيثُ تنازلا وتصادَمَتِ الأبْطال حتّى بَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ واحتدمت معركةٌ قاسية تشيب لهولها شعورُ الولدانِ، فأبْلى فيها موسى بلاءً حسناً، فكان يَلْقى الفارسَ على صهوةِ جوادِهِ،ويُسَدِّدُ إليه الضربةَ إنْ أصابتْ مِنه العُنُقَ اجتثَّتِ الرأس، وإنْ وقَعَتْ في الجذعِ قطعته اثنين. وأظهر الضحّاك من ضروب البطولةِ ما جعل كفَّةَ النَّصرِ تميل إلى الزبير عدوِّ الأمويِّينَ الألَدّ.

كان موسى يصيحُ صيحاتِ الانتصارِ،فترتعِدُ لها فرائصُ الأعْداءِ،فيرتدُّونَ عن منازلتِهِ. وصادف أنَّ عدة فرسان عرفوا الضحّاكَ، وكان قد تقدّم بين صفوفِ مَنْ يحاربُ، فأحاطوا به وهاجمُوْه مِنْ كلِّ جِهَةٍ، وهو يدافعُ عن نفسه بجرأةٍ لا مثيل لها. وبينما هو كذلك رآه موسى،فتوجَّه نحوه ليساعدَه على أعدائه، وقبلَ أنْ يتمكّن من ذلك أصابتِ الضحّاكَ ضربةٌ غادرةٌ أردَتْه قتيلاً. دبّت الفوضى في صفوفِ جيشِهِ، فارتدَّ موسى لساعتهِ يجمع شملَهُ ويتسلَّم قيادتَهُ، إلاّ أنّه تخاذلَ وراح يتراجعُ،فاسْتَقَرَّ النَّصرُ

بجانِبِ مروانَ. وعندئذ لم يَرَ بدّاً من الانسحاب، ولكن أين المفر؟ وبعد فترة من التفكير رأى أنْ يلجأ إلى عبد العزيز ولد مروان. فهل يجيره؟[٦]

هذا هو السؤال المقلق الذي ارتسمَ أمام ناظرَيه وأَقْلَقَ بالَه وهو في طريقه إلى قصرِ عبد العزيز في الشّام.

ـ السَّلامُ على عبد العزيز بنِ مروان. جِئْتُكَ مستجيراً.

ـ مِمَّن؟

ـ من أبيك الخليفة. هلاَّ أَجَرْتَني.

ـ هل سمعت يوماً، أنَّ عربيّاً استَنْكَفَ عن إغاثةِ ملهُوف؟

إجلِسْ، يا موسى، لننظرَ في أَمرِكَ. وستَبْقى ضيفنا حتَّى نأْذَنَ لكَ بالانصراف عنّا.

ـ كيف أشكرُكَ، يا مَرْوَان؟

ـ من ترى يريد بك شرّاً؟

ـ أبوكَ وجندُه.

ـ اطمئنَّ إلَيْنا وهَدِّىءْ من روعَك. لقد رأيناك في المعركة،ونعرُفُ أنكَ عدوٌّ الأمويّينَ وناصرُ أعدائهم ولكن ما يَشْفَعُ بكَ جرأتُك.

ـ أترى الخليفة يغضُّ الطَّرْفَ عن عدائي له وللأمويِّين، وينسى الإساءاتِ الّتي أَلْحَقْتُهَا برجالِهِ؟

ـ ألا تثقُ بِمَنْ حماك؟

ـ كيف لا، لو لم أثق بهِ لما كنت قد أَتَيْتُ إليه.

ـ أنا خارج لتوّي، إلى الخليفةِ، ولن أدعَهُ حتّى أحصَلَ مِنْهُ على عفوِهِ.

ـ بارَكَ اللّهُ فيك.

ـ إنهضْ واسترح.

ـ لن أستريحَ قبلَ أن أطمئنَّ إلى عفوِ الخليفة.

وإذ هما كذلك دخل عليهما أحدُ حرّاسِ القَصْرِ وقال:

ـ في الباب، يا مولاي، رسول.

ـ من أرسله؟

ـ مولانا الخليفة.

ـ أَدْخِلْه.

وبعد قليلٍ تقدَّم جنديٌّ قاسي القسمات حاد النَظراتِ، لا تزال غبارُ المعركةِ عالِقةً بثيابه.

ـ مولاي.

ـ ما الّذي تريدُ؟

ـ إنَّ الخليفة، أيَّد الله عزَّه، أَرسَلَني إلَيْكَ لأطلبَ مِنْكَ أَنْ تذهبَ إلَيْهِ وتصطحِبَ مَعَكَ موسى بنَ نصير.

ـ وأين هوَ؟

ـ بعدَ أَنْ انتهتِ المعركةُ هرَبَ، فلاحَقَهُ بعضُ رجالنا وأدركُوْه وهوَ يدخُلُ دارَك.

ـ إِذْهَبْ، وقلْ لمولانا الخليفةِ أَنّي آتٍ إلَيْه.

ولم يطلِ الوقت حتّى دخل عبدُ العزيز على والدِه مروان.

ـ هل أَجَرْتَ موسى . يا بنيّ .

ـ نعم، يا مولاي .

ـ وأين هو الآن .

ـ في قصري .

ـ لماذا لم تأتِ به إلَيْنا؟

ـ اتِّقاءً لغضبك .

ـ أليسَ هو مَنْ فرَّ إليك،ولاذَ بك وطلبَ المعونَةَ منك؟

ـ بلى، يا موْلاي .

ـ وهلْ سمِعْتَ أَنَّ عربياً غَدَرَ بضيفٍ أَوْ بمستَجير؟

ـ كلّا، أبداً . . .

ـ والله لو لم تكن عبد العزيز ابني لأمرت بجَلْدك وسَجْنك لقلّة ثقتك بالخليفة . قمِ السَّاعَةَ وارسلْ في طلبه إلينا . ألَا يريدُ أَنْ يقلعَ عن كرهه لنا

ومعاداتِنا ومحازَبَة(٧) أعدائنا؟

ـ لم أباحثْهُ بهذا الشأنِ، ولكن إنْ عفوتَ عَنْهُ يا مولاي، وشملتَهُ برِضاكَ، فلا شكَّ أنَّه سيبدّل رأيه بنا.

ـ وإن لم يفعل فماذا ترى؟

ـ ما دمتَ، يا مولاي، تسألُني رأيي فسأقولهُ لكَ بكلِّ جرأةٍ وأمانةٍ ودُوْنَ مواربةٍ أو دَوَران. أرى أنْ نتركه حرّاً فلا نسيء إلَيْه. يجبُ أن لا يؤخذَ إنسانٌ أو يعاقبَ أو يعذَّب بسببِ مبدإ أو دينٍ يَعْتَنِقُهُ، فالإنسان حرٌّ في أَنْ يتحزَّب لمن يشاءُ،ويؤمِنَ بما يشاءُ على أَنْ يكونَ أميناً في انتمائه إلى وَطَنِه،كما أنَّه حُرٌّ في معاطاته مع ربِّه. فالدّينُ يوفِّرُ لهُ المبادىءَ الأساسِيَّةَ التي تنظِّم سُبُلَ هذه المعاطاة. والله وحدهُ، عزَّ وجلَّ،يحقُّ لَهُ أنْ يكافئَهُ عن الحسناتِ ويحاسِبَهُ عن السّيئات. فالتشدُّدُ وإجبارُ النَّاسِ على اعتناقِ المبدإ أو المذهبِ الَّذي نؤمِنُ بهِ تَعَدٍّ صارخٌ على إنسانيّةِ الإنسانِ،ونَقْضٌ لأبسطِ مَبادِىءِ الحُرِيَّةِ والحقِّ والعَدْل.

ـ لكَ ما تشاءُ يا عبدَ العزيز.

ـ عندئِذٍ ذهبَ عَبْدُ العزيزِ،وجاءَ بموسى إلى قصرِ والده، فوضع هذا سيفَهُ عِنْدَ قَدَمَي الخليفة وَآسْتَغْفَرَهُ عمّا كان.

نشأتْ، منذُ ذلك اليَوم، صلَةٌ حَمِيْمَةٌ بين موسى وعبد العزيز، فأقلَعَ عن عدائِهِ للأمويِّين،وارتبط بهم بصلةٍ متينَةٍ، وأَخْلَصَ لَهُمُ الودَّ وبادَلُوْهُ بالمِثْلِ. فلمّا استعادَ الخليفةُ مروانُ بنُ الحَكم مِصْرَ من يَدِ خصُومِهِ ولّى عَلَيْها عبدَ العزيز وعيّنَ موسى بنَ نصير وزيراً لابنِهِ ومشيراً. فقضى أعواماً عديدةً مُتَنَعِّماً بمنصبِهِ وفي نفسه رغباتٌ أرْحَبُ مِنَ الفَضَاءِ،وطموحٌ إلى أبْعد ما يمكن أنْ يطمعَ بهِ إنسانٌ.

تولّى الخلافة إثْرَ وفاةِ مروانَ بنِ الحكم ابنُهُ عبدُ الملكِ، فعَمَدَ إلى تعيين أخيه بشر بنِ مروانَ أميراً على الكوفة والبصرة. وكان هذا يومئذ حَدَثًا طريَّ العُوْدِ تَنْقُصُهُ الخِبْرة. فرأى أنْ يسندَهُ برجلٍ مخلص خلوق يمدُّ له يدَ العونِ في السّاعاتِ العصيبةِ، وهكذا أرسل لَهُ

موسى بنَ نصير كي يكونَ المسؤولَ الأوّلَ عن ديوان العراق.

ـ أهلاً بك، يا موسى، علّنا نَجِدُ بك خيرَ مُرْشِدٍ وأفْضَلَ نصير.

ـ أرجو أنْ أكونَ عندَ حُسْنِ ظنِّ مولاي.

ـ ما رأيُك أنْ تتسلَّم خاتَمَ الإمارَةِ، وتكونَ على الخَراج(٨)؟

ـ الأمرُ لكَ، يا مولاي.

عاشَ الرَّجلانِ ردحاً من الزَّمن، في وئام، إلاَّ أنَّ المنيَّة عاجلتْ بشراً. وبعدَ ذلِكَ تواترتِ الأخْبارُ عن تردِّي الحال في العراق، وأنَّ فساداً قد ظهر في إدارةِ أمْوالِ الخَراج، وكان من الطبيعي أنْ يساءَ الظنُّ بموسى. فأرْسَلَ الخليفةُ في طلبِ الحجَّاج بنِ يوسفَ الثقفي المعروفِ بقَسْوَتِهِ وإرادَتِهِ الصَّلْبَةِ في تقويم كلِّ اعوجاج. فما إنْ مَثُل بَيْنَ يدَيْهِ حتّى صاحَ به:

ـ يا حجَّاج.

ـ مولاي .

ـ قد جَعَلْنَاكَ على العراق .

ـ وأنا لها .

ـ لا يفوتنَّكَ أمرُ موسى وأنْصاره .

ـ سَنَسْعَى إلى تصْحيحِ الأوْضاع بما تَسْتَلْزِمُهُ مِنْ شدّة .

ـ عليكَ إذاً بموسى،فهو الَّذي زرع الفسادَ هناك وَآمْتَدَّتْ يدُه إلى بيتِ مال المسلمين .

ـ سنقْطَعُ أَيْدي المُخْتَلِسِينَ، ونَقْضي على دابر الفسادِ أيْنَما كان،ونتدبّرُ أَمْر كلِّ من سوَّلت له النَّفس أنْ يخرج على إرادة مولانا .

ـ بُورِكَ فيك، يا حجّاج .

وأتى الحجّاج إلى العراق .

ما إنْ عَلِمَ موسى بمجري الأحداثِ حتّى جَمَعَ أنْصَارَهُ وتشاورَ مَعَهُم في ما يجب أنْ يَكون . فنصَحه

الجميعُ بوجوبِ الانسحابِ إلى بلادٍ أكثرَ اطمئْناناً وأوْفَرَ أَمَاناً.

قَبِلَ نُصْحَهُم دونَ تردُّدٍ، وقال:

ـ أودُّ قَبْلَ تركِكُمْ أَنْ أؤكِّد لكُم أنِّي بريءٌ ممّا اتُّهمت به وممّا سوف يُلْصَقُ بي من جرائم جديدة. فأنا رجل مستقيم، أخاف الله في عقابه، أمين للخليفة ولكم ولنفسي كما أنا أمين لربِّي.

ـ اذهبْ محفوظاً بعناية الله، ما دمتَ مؤمناً به مستسلماً لأحكامِه، وثقْ أَنَّ لا خفيّ إلا ويظهر.

ـ أسْتَودِعُكم الله.

ـ وإلى أَيْنَ أنتَ ذاهبٌ الآن؟

ـ إلى مِصْرَ.

ـ وماذا هُناك؟

ـ لي فيها عبدُ العزيز.

ـ وما باستطاعتِه أَنْ يفعل وهو ابنُ الخليفة؟

ـ سبق له أنْ أدْخَلني في رضى مروان.

ـ هل أنتَ واثق مِن أنَّه يقبَل أن يجيرك ضد عبد الملك؟

ـ هذا ما سنراه.

وصل موسى إلى مصر، وما أن عَلِم عبدُ العزيز بمجيئه حتَّى أوصى القادَة به خيراً، وأمر مَنْ على باب قصره بإدخاله فورَ وصوله.

ولم يَطُلِ الأمر حتَّى مَثُلَ موسى بين يدي عبد العزيز.

ـ أهلاً بك، يا موسى، أنا واثق من أمانتك وإخلاصِك، فلا بأس عليك.

ـ هذا ما كنتُ أرجوه.

ـ ما بالك وَجِل(٩)؟

ـ أنا لا أطمئِنُّ إلاّ في حِماك، يا مولاي. وأودُّ لو أتمكَّنُ أنْ أقضي العمرَ في خدمتك.

ـ والآن، اصْدُقْني الخبر، هل أسأتَ التَّصرّفَ ومددتَ اليَدَ إلى بيتِ المال؟

ـ أُقسم لك. . .

ـ لا حاجة بك إلى القسم، فانتَ إنسان تقيّ ورع، وطباعُك تأبى عليك ارتكاب الموبقات[10] وتسمو بك عن الدّنايا. ولكن كيف ساق إليك الخليفة تلك الاتّهامات؟

ـ قد يكون بشرٌ ارتكب خطأً طفيفاً، فقام بعض منافسي بحملة مغرضة، وسعوا بي[11] لدى الخليفة.

ـ هذا أقرب إلى الصَّواب ممّا يدّعون والآن أتدري ما يتوجَّبُ علينا؟

ـ كلاّ.

ـ لن أتركك تتخبّطُ في محنتِكَ هذه، سأَنصرُكَ على أعدائك، إيماناً مني بإنسانيتك وبالخير الّذي تستطيع أن تفعلَهُ.

ـ كيف أُشكرك يا مولاي!

ـ سنذهب إلى الشّام، وندخلُ على الخليفة ونقنعه ببراءتك.

ـ كما تشاء، يا مولاي.

ـ ستنزل قبل ذلك ضيفاً عَلَيْنا.

***

ومضت الأيّام، وإذا بعبد العزيز يدخل على الخليفة عبد الملك مصطحباً صديقه موسى.

ـ كيف تجرؤ، يا عبد العزيز، على الدّخول علينا مصطحباً معك عدوَّ اللّه موسى بن نصير الّذي أساءَ الأمانةَ وعبث بأموال الرعيَّة؟

ـ عفو مولاي. إنيِّ أَعرِفُ موسى منذ زمن بعيد وإنيِّ واثق به تمامَ الوثوق، فهو سليمُ الطويّة(١٢)، نظيف الكف.

ـ أينَ طارتِ الأموال إذاً؟

ـ قد يكونُ بشر، وهو حَدَث(١٣).

ـ إنَّ بشراً أخي، لا يسيء الأمانة.

ـ أنا لم اتهمْ بشراً، يا مولاي، معاذ اللّه، فقد يكون قد أخطأ التَّصرُّف ببعض الأموال، ولم يُطْلِعْ موسى على الأمر ليعمل على تصحيحه. وبعد وفاته نسب إلى عامل الخراج إساءة التصرّف.

ـ لماذا لم يأتِ إلينا ويبرىءُ ساحتَه إذاً؟

ـ يا مولاي، لقد خاف بطش الحجّاج، فلجأ إليّ. ها هو الآن بين يديكَ، فإذا شئتَ استمَعْتَ إليه وأعطيته فرصةً للدّفاع عن نفسه.

ـ كلّا، يا عبد العزيز، لولا حرمتك لدينا لأمرنا بتوقيفه وإنزال أشدِّ العقاب به.

ـ ولكن، يا مولاي، ليس من العدل في شيء أن تساقَ الاتّهامات ضدَّ رجل، ولا تعطى له فرصة كي . . .

ـ أنا عارف بجميع ما يريدُ أَنْ يقول. عليه أَنْ يدفعَ لبيت المال مئةَ ألف دينار.

ـ هذا مبلغٌ ضخم، فمن أَينَ يأَتي به؟

ـ ليتدبّر أمره.

ـ وإذا تعذَّر أَن يجمَعَ المبلغَ بكاملِه؟

ـ عندئذ يُساق إلى السجن، ويَلقى العقاب الّذي يستحق.

ـ مولاي أَرجو العفوَ عنه.

ـ لا أَفهم، يا عبد العزيز، لماذا تتّخِذُ جانبه وتدافع عنه.

ـ إيماناً منيّ ببراءته، يا مولاي، ودفاعي عنْه هو دفاع عن صديقٍ مخلص. لا يزال يؤدّي لقضيتِنا أَجَلَّ الخدمات.

ـ أنسيت أنه كان عدوّ بني أميَّة الألَدّ(١٤)؟

ـ جَلَّ مَنْ لا يُخطىءُ، يا مولاي.

ـ ما دام الأمر كذلك، فنحن نكتفي بأَنْ يدفعَ خمسين ألف دينار لبيت المال.

ـ إنه لا يَمْلِكُ هذا المبلغ.

ـ ليتدبّر الأمر.

ـ كما تشاءُ، يا مولاي.

٣ - موسى والي أفريقية

أقام موسى في مصر ، بحمايةِ عبدِ الملك ، وذات مساء قال له عبد العزيز:

- أنا غير راضٍ عن حسّان بن النُّعمان ، ممثّل أخي في أفريقية .

- لماذا يا مولاي .

- إنَّهُ قابع في قصره . مستسلم للبذخ والطرب متوانٍ[١٥] عن القيام بواجباته ، مهمل لشؤون الرعيّة ، وقاعد عن الفتح[١٦] .

- ما باستطاعتنا أن نفعل والخليفةُ يَشْملُهُ برضاه .

- سأعمل على عزله .

- وكيف ذلك؟

ـ أتعود معي، يا موسى إلى الشّام؟
ـ كيف لا؟

ـ إذاً استعدَّ للسفر قريباً. ما رأيك في أَنْ نعيِّنَكَ مكانَه.

ـ هـذا منتهى ما أَشتهي. كنتُ ومـا زلتُ منـذ نعومة أظفاري أحلم بأفريقية، ولكن حتىً الآن لم تُتَحْ لي فرصة زيارتها.

ـ مـا تستطيع أَن تحقّق وأنت شيـخ أَرْبَتْ[١٧] سنوه على السادسة والستِّين.

ـ مولاي، أَيقاسُ عمرُ الإنسان بعـدد الأعوام الّتي عاشها؟

ـ وبمَ إذاً؟
ـ أنت أَدرى بالّذي أُود أَنْ أقول.
ـ أأنت واثق من نفسك إلى هذا الحد؟
ـ كيف لا، وأنتَ عضدي[١٨]؟!

***

وصل عبدُ العزيز إلى الشّام برفقةِ موسى، بعدَ مسيرةِ سبعة أيام، واستأذن بالدّخول على الخليفة.

ـ ما الذي أتى بكَ، يا عبد العزيز؟

ـ أرادَ موسى أنْ يَبِرَّ بوعدِه، وها قد أتى ليدفع الجزاء، بالرغم من براءته مِمّا نسب إلَيْه.

ـ ولماذا أتَيْتَ أنتَ معه؟

ـ لأمر بالغ الخطورة.

ـ بالغ الخطورة؟ تكلَّمْ، يا عبد العزيز.

ـ إنَّ حسّانَ بنَ النّعمان نائمٌ على الغار الّذي أورثه إيَّاهُ سابقوْه، فلم يَقُمْ بأيِّ عمل...

ـ هذا ما أَعرفه.

ـ ولكن، يا عبد الملك، أفريقية بلاد شاسعة المساحة متعدِّدة الأَصقاعِ، وثنيَّة المعتقد، ثرية، كنوزها لا تنضب. باستطاعة رجل مخلص مقدام، أَنْ يُسَيْطِرَ على أصقاعها وأن يتوسّع ما شاء فيها.

ـ ومن أين تأتي بهذا الرجل؟

- هو الآن بين يديك.

- من ؟ موسى؟ ألا ترى أنّهُ شيخٌ هرم؟

- ولّـهْ، يا مولايِ، وأطلقْ يدَه، فسوف ترى منه العجب العجاب. فموسى...

- أتَسْخَرُ منيّ، يا عبدَ العزيز؟

- بل أقول الحقّ. أَصبح العرب من الضعف والوَهَن، حتّى بات أعداؤُنا يطمعون بنا. ولن يمضي وقتٌ طويل، حتّى يتغلّب علينا البربر ويتحكّمون بنا، وقد يُخرجونا مِنْ أفريقية، وعندئذٍ يَصْعُبُ بلْ يستحيلُ عَلَيْنا استعادة تلك الدّيار.

- ماذا ترى يا موسى؟

- أنا عبدُ مولايِ.

- هلْ تقوى على النّهوضِ بهذهِ المهام الجِسام(١٩)؟

- الَأمل باللّهِ يا مولاي، فبهِ ومِنْهُ النَّجاح. ما زلتُ قويّ السّاعد، نيِّر البصيرة، مطمئنّاً إلى قُدْرَتي، واثقاً بنفسي طامحاً إلى خدمةِ الخلافة.

ـ وَلَّيْناكَ أفريقية، يا موسى بن نصير، وأَطلَقْنا فيها يدَكَ، فهُبَّ إليها برجالِكَ، واعْمَلْ لنصرَةِ وعزَّة العرب.

ـ لن أَرتاحَ، يا مولاي، قبل أَن أَبْلُغَ الهدفَ الَّذي أَسعى جاهِداً إليه.

ـ إذهبْ وعينُ المولى ترعاك.

وقف موسى، وقبّل يدي أمير المؤمنين، ورفع آيات الشّكر والامتنان إلى صديقه عبد العزيز، وحمدَ اللّه وشكرَه على نعمه، ثمّ استأذن وانصرف. أخذ موسى يستعدُّ للذّهاب على رأس حملة كبرى إلى أفريقية لاستلام مهام منصبه. وقبلَ أن يسيرَ إليها، جمع جيوشه ومعاونيه، وخطب فيهم وفي مَنْ اجتمع حوله، وقال: «أيّها النّاس، شاء المولى العليّ القدير، بحكمته الفائقة أَنْ يجري فتح القارّة الأفريقيّة على يدنا، وها نحن إلَيْها نسير، معتمدين على شجاعةٍ وحكمةٍ نتحلّى بها. فلنقدمْ جميعاً بقلبٍ واحدٍ ويدٍ واحدةٍ ولنتشبَّثْ بكل أَرض ندخلها، ولا يتراجعَن واحدُنا

شبراً، وإنْ كان ثمنُ ذلك الشبر دماً يهرق وأنْفَاساً تُزْهَق. فالحياةُ فانية والأمة خالدة. مَنْ أقدمَ سَيُخَلَّدُ ذِكْرُهُ في صفحاتِ مآثر الأمة بما أتاها مِنْ خير على يده، ومَن هربَ أو توانى فمرذول إلى الأبد.

أيّها النّاس، الطريق التي سنباشر السَّير عليها شاقة صعبة. فمَنْ له طاقةٌ بها فليقدمْ، ومَن يخافُ الحرمان والشدّة والألمَ والقتال فليحجم(٢٠).

أنا رجل كأحدكم. فمَن رأى منّي حسنة فليحمد اللّه،وليحضّ على مثلها. ومن رأى منّي سيّئة فليذكُرْها، فإنّي أُخطىء كما تُخطئون،وأُصيب كما تصيبون. وسوف تكون لكم عطايا نضعفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً. ومن كانت له حاجة فليرفعْها إلينا، وله عندنا قضاؤها ما عزَّ وهان، مع المواساة إن شاءَ اللّه».

مشى موسى بن نصير في مقدّمة الجيوش يواكبه من أولاده عبدُ اللّه، وعبدُ العزيز، ومروان، وعبد الأعلى، وعبد الملك، وعبد الرّحمن،وكان يأكل ممّا

يأكلون،ويشربُ مِمّا يشربون، ويقاسي ما يقاسون، وينامُ حيثُ ينامون. وما إن وصلَ إلى القَيرَوان، في أرض تونس اليّوم، حتىّ وجد العرب على أسوءِ ما يكون، فهم متفرِّقون وموزَّعون شيعاً، لا يساند الأخ أخاه. وقد تولّى عليهم الضعفُ ورُوحُ الاتكاليَّةِ والتّخاذل والانهزاميَّة، لا يجرؤونَ على الظهورِ خوفاً من سُطوَةِ البَرْبَرِ، ولا يَبْرُزُوْنَ إلى عيد، معزولون في ديارهم، غرباءُ في أفريقية.

عزَّ على القائد المغوار أَنْ يرى ما رأى، وشعرَ بنابِ الألم يَنْهَشُ في كبدِهِ، فراح يشدِّدُ من عزائم القوم، ويؤمّلُهم، ويذكِّرُهُم بماضي من سبَقَهم، ويحفِّزُهُم على الأعمالِ المجيدة، وما زالَ حتىً جمعَ شملَ ما تفرّق، وقوّى أواصرَ ما وَهَنَ، فأحيا الآمال الموات. وغالباً ما كان يلهج بمثل هذا القول: «إنّي لرجلكم، ولكنّي عاجزٌ وحدي عن إتمامِ ما وطّدتُ النّفس عليه. عليكم أَنْ تحارِبوا الخوفَ في أَنفسِكُم، وتتغلّبوا على التّواكلِ وتنبُذوا الأحقادَ، وتَجْتَمِعُوا على التّسامُحِ والخير، وتُقبِلُوا على الوثوقِ بأنفسكم».

تناقل الناس خبرَ وصولِ موسى وأهدافه في أفريقيةَ، فدبَّت الحميّة في النفوس، فأقبلوا مِنْ كلّ صوبٍ إلى القيروان.

وذات يوم، جمع النّاس، ووقف فيهم خطيباً وقال: «أيّها الناس، إنّما كانَ قبلي على أفريقية أحدُ رجلين: مسالمٌ يُحبُّ العافية، ويرضى بالدون من العطيَّة، ويكره أنْ يُكلَّم ويحبّ أنْ يسلم، أو رجلٌ ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راضٍ بالهوانِ. وليس أخا حرب إلاّ مَن اكتحل السَّهر وأحسنَ النَّظرَ، وخاض الغَمْرَ، وَسَمَتْ به هِمّتُه. إنْ ظفرَ لم يزدْه الظَّفرُ إلاّ حذراً، وإنْ نُكِبَ أظهرَ جلادَةً وصبراً. وبعد، فإنّ كلّ مَنْ كانَ قبلي كان يعْمد إلى العدوّ الأقصى، ويتْرُك عدوّاً منه أدنى ينتهزُ الفرصةَ، ويدُلُّ مِنه على العوْرة، ويكونُ عوناً عليه عند النكبة. والله والله، لا أريم[٢١] هذه القلاع والجبال المُمتَنِعةَ، حتى يَضَعَ الله أرفعَها، ويَذِلَّ أَمنَعَها، ويفْتَحها على العَرَبِ بعضها أو جميعها، أو يَحكُم اللّهُ لي، وهو خيرُ الحاكمين».

بثَّ موسى الأعينَ،وراحَ يسألُ عنِ البلادِ

وطبيعَتها وقلاعها وأَهْلها وعاداتهم وعن القبائل المرتدَّة وقوَّتها وما يُمْكِنُ أَن يفيد مِنها إنْ أعادها إلى الطاعة. ثمَّ جمعَ صفوفَ العَربِ ونَصَحهم بالشدَّة، ووزَّع عليهم السِّلاح، وأشرفَ على تدريبهم، ونفخ فيهم روحَ الحَميَّة والعزَّة. وبعد أن استكمل دراساته، وتجمَّعَتْ لَديْه المعلومات التي يمكنه أن يفيدَ مِنْها، أخذَ يعدُّ العدَّة ويخطِّط بعزم أكيدٍ وحذرٍ واعٍ لاستكمالِ فتح أفْرِيقيَة والمَغْرب الأقْصَى وسحقِ العدوّ أيْنما وُجِد.

وذاتَ مساءٍ جمع حوْلَه قادتَهُ وأوْلادَهُ، وقال:

ـ يا عبدَ اللَّه!

ـ أبي.

ـ أين تقعُ قلعة «زغوان»؟

ـ إنها تتوسَّط المسافَةَ بين القيروان وتونسَ، ولا تبعد عنَّا أكثر من مسيرة يومٍ واحدٍ.

ـ وما عَنِ المُدافِعِينْ عَنْها؟

ـ ألفُ فارس.

ـ نحنُ، يا بنيّ، في القيروان، نعيشُ محاطين

بالأعداء، والمغيرون، يهاجمون رجالنا ليل نهار، ويجعلون قاعدتنا هذه غير آمنة، فقد حان الوقتُ كي ندخلَهم في طاعِتنا، لنرتاح من شرورِهم، فنأمن على أنفسنا منهم، فهل لك طاقة بزغوان»؟

ـ أيسألني أبي عمّا إذا كانت لي جرأةُ القتالِ؟

ـ إسْمَعْ إذاً. لتتألّف أوّل كتيبة من خمسمئة فارس مجهّزة بالسّلاح ولتتّجِه في أوّل فُرصة سانحةٍ، تحت جناحِ الظلام إلى زَغْوان. وعِنْدَما تُصْبحُ على بُعْدِ مسيرة ساعة واحدة مِنْها، اقسمِ الكتيبة إلى خمس فصائل، على كلٍّ منها قائدٌ تَثِقُ بِهِ. وعِنْدَ تمامِ هذه الترتيباتِ هاجِمُوا القلعَة مِن جهاتِها جميعاً معتمدين على عُنصُرَي السُّرعةِ والمفاجأة، ولا تعودوا إلى القَيْرَوان إلّا وقد أتاكُم الله نصراً مبيناً.

يا بنيّ! لا تعيروا انتباهكم إلى مَنْ هم خارج الأسوار. . . فالهَلَعُ[٢٢] سيدبُّ في نفوسِهم وسيَسْتَسْلِمون إلَيْكم دونَ حرب.

يا عبد الله، حافظ على حياةِ رجالكِ ما

استـطعت، وصُن كـرامَتـكَ قبـلَ حيـاتِـكَ. اذهبْ، وفّقَك الله، ولا تنسَ أنَّنا عَليكَ عَقدْنا آمالَ الأمَّة.

* * *

مشى عبدُالله بجَيْشِه إلى «زَغْوان»، واعتمد الخطّة الَّتي وضعها والدُه موسى. وفي هذه الأثناء كانت كتيبةٌ أخـرى من خمسمئة فارس تتـوَجَّه إلى جـوارِ القَيْرَوان تجـاهِدُ وتحـارِبُ وتناوِشُ للقضـاءِ عـلى جميـع جيـوبِ المقاوَمَةِ بأقصى ما يُمكِن مِنَ السُّرعة.

وما إنْ وصل عبدُالله بالقربِ من زغوان، حتّى قال لرجاله: «وضع موسى ثقتَهُ بنا»،وهي المرَّة الأولى التي نخرجُ فيها إلى فتح، فعلينا أنْ ننتصرَ أو نموت. عنـدَما تسمَعُونَ نداءَ الحرب هاجِمـوا جميعُكم دفعـةً واحدةً متكاتفينَ متساندين. والنَّصر لنا.

* * *

وفي السَّاعة المقرّرة، تقدَّمَتِ الفَصَـائلُ بسرعـةٍ خاطفة وثباتٍ عنيدٍ باتجاه زَغْوانَ،وقد عقدت النيَّة على فتحِها مَهْما غلا الثَّمن.

لم تمضِ ساعتان على بدء المسيرة حتّى كانَ الكشّافةُ يَفِدُون على عبدِ الله. وقال أَحدُهُم:

- وصلتِ الفصائلُ جميعُها إلى الأسوارِ، والقلعة ما زالت تغطُّ في نومٍ عميقٍ.

- باشِروا الهجومَ فورًا.

ودوَّت صيحةُ الحرب. فشقّت ظلامَ اللَّيل وألقت الرُّعْبَ في قلوب الأعْداءِ،فإذا بأبّوابِ القَلْعَةِ تنفتح وتتدفّق منها فصيلتان إلى داخل الأسْوار. التحمَتِ الأجْسامُ، ودارت مَعركةٌ مخيفةٌ بالسَّيف معَ جنودِ الأعداءِ في ضوءِ القمر.

وما إن انبلَجَ الفَجْرُ حتّى برزَ عبدُالله للأعداء قائلاً:

- إفتحوا أبوابَ القلعةِ، واترُكوا أسلِحتَكُم في أماكِنها، فقد أمَّنتُكم على حياتِكم وأرزاقِكُم.

تشاوَر القومُ فيما بينَهم، فرأوا أنَّه لا بدّ مِنَ الاستسلام، ففعلوا.

ولَمْ يَطُلِ الأمرُ حتَّى افْتُتِحَتْ زغوان،وسقطت

بين يدَيّ عبدِ الله . عندئذ ترك فيها مئة فارس، وقَفَلَ راجعاً إلى القيروان .

وصلت بشائرُ النَّصْرِ إلَى موسى، ففرِح وَشَكَر المَوْلَى تعالى، وخرَجَ بِنَفْسِه يُرَافِقهُ جميعُ قادَةِ العرب وأَعيانهم لاستِقْبالِ عبدِالله وجُنودِه تقديراً لهم على بسالَتِهم .

٤ ـ احتلال المغرب

كان قصرُ موسى يعجُّ بالأعيانِ والقادةِ حينَ أتاهُ أحدُ الحُرَّاس وقال له:

ـ في البابِ امرأةٌ تطلُبُ مواجهَتَكَ.

ـ دَعْها تَدْخُل.

وما إنْ مثَلتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، حتّى قالت:

ـ يا ابن نصير.

ـ ما وراءك يا امرأة؟

ـ لقد طبّقت شهرتك الآفاق. إنّك جمعت كلمة العرب، وإذا بهم يد واحدة في خدمة الأمّة العربية. لي طلبٌ لَدَيْك. هلْ تستجيبه؟

ـ لن نردَّ لكِ طلباً إنْ كان في مقدورِنا إتمامه.

ـ أتعرف عقبة بنَ نافع؟

ـ ومَنْ لا يعرفه؟

ـ أتدري كيفَ قتِل؟

ـ إنَّ كسيلةَ جَمَعَ مِنَ البَربَر جموعاً غفيرةً، وهاجمَ بها الجيوشَ العربيَّة، فكانت معركةُ تَهْوَذَةَ المشؤومة التي قُتِلَ فيها عقبة.

ـ إنَّ مَقْتَلَهُ على يدِ البَرْبَرِ بعدَ كلِّ الأمجادِ الّتي أَوْرَثها العرب ترك في نفوسهم جرحاً لن يَندَمِلَ. وقد ثار زهيرُ بنُ قيس مِن كسَيلة وأتباعه.

ـ وما تَبْتَغِيْنَ منّا؟

ـ كلُّ ما أبتغيه، أن تحتلَّ جيوشُنَا سَجُوْمَه، مواطِنَ آلِ كسيْلة، وأنْ تُطلِق يدَ أولادي عياضَ وعثمانَ وأبي عُبَيْدَةَ فيهم ليثأروا لأبيهم.

ـ لكِ منّا عهدٌ، يا امرأة، أنّنا سنحقّق أُمنيتكِ عِنْدَما تدقُّ الساعة.

ـ عسى موعدنا معها بات قريباً.

ـ الأمور مرهونةٌ بمواقيتها.

ـ لا حاجة بنا إلى من يحثّنا على أمرٍ نرغبُ فيه ونسعى إليه.

ـ للّه الحمد.

ـ البربر محاربونَ أقوياء الشكيمةِ، لا يهابُوْنَ الموت، ولا يتراجعون متى أَقْبَلُوا على حرب..

ـ نحن نُدْرك ما تقولين، وسنعدُّ للأمرِ عدّته ولن نَنْفَكّ حتّى نبلغَ وَطَرنا(٢٣).

ـ أخذ الله بناصركم، وحفظكم ذخراً للأمّة العربيّة.

* * *

بعد أسابيع قليلةٍ سادَت القَيْروانَ حركةٌ غيرُ معتادة... وتدفّقتْ إليها جموعٌ غفيرة. تحدّث الناس عن حملةٍ جديدة سيقوم بها موسى بن نصير.

وفي ذات مساء دقَّ نفيرُ الحرب. لبس العرب دروعَهُم وخوذهم وتقلّدوا سيوفَهم، ومشوا إلى الحربِ،والحماس يملأ منهم النفوسَ، وقد تاقوا للتغلّب على البربر والانتقام لعقبة.

أعدَّ موسى خطةَ الهُجوم، ومشى في مقدّمَةِ جيشهِ، وجَعَلَ عياضَ بنَ عقَبَةَ بن نافع بجانبه.

أَخضَع موسى القبائلَ التي خرجت على طاعةِ

الخليفة، وأخذت قبائلُ أخرى تتراجعُ أمامه نحوَ الغربِ، فأصدَرَ أوامرَه بوجوب تعقُّبِهَا وإخضاعِها لاستئصالِ شَأفَةِ(٢٤) التمرّد وتوفيرِ الأمان لجيوشه.

وأرسل موسى الرسلَ إلى صاحب مصرَ يُخبِرُهُ بما حصل ومما قاله: «السلامُ عليكم، نخبرُكم أنَّ الله قد أتانا من لدنهُ بنصر مبين، فقد تمَّ لنا افتتاح زَغْوانَ وسجومَه، وأخْضَعْنا معظم قبائل البربر. وقد بلغت ضحايا البربر في هذا القتال، ما لم تبلُغْه في أيَّةِ واقعةٍ أخرى، وأَسَرْنا عدداً ضخماً من مقاتليهم إذ بلغ الأسرى ثلاثين ألفاً. نحمد العليّ العظيم على النِّعَم التي مَنَّ بها علينا، ونرجو منه التوفيق في كلِّ ما نقوم به».

ولمّا وصل الرّسولُ إلى مصرَ، ودفعَ الكتابَ إلى صاحبها، هالَهُ رقمُ الأسرى العظيم، واعتقدَ أنّه مبالَغٌ فيه، فدعا أحدَ مستشاريه، وقال له:

ـ ويحك، اقرأ هذا الكتاب، وآبدِ رأيك.

فالتفت المستشار إلى الرسول، وسأله:

ـ ما عدَدُ الأسرى من البربَر؟

ـ إنَّه يا مولاي، أكثر من أن يُحصى، فهـو بعدد رمال الصحراء.

ـ هل دخلتم سَجُوْمَه؟

ـ دخلت جيوشُنا سجومه، بعـدَ أنْ كدنـا نفني آل كسيلة.

ـ وما ينوي موسى أن يفعل؟

ـ هذا ما لم يطلعني عليه.

وراح المستشارُ يقرأ الكتاب، ويهزُّ رأسـهُ هازئاً. هـذا وهمٌ. سأُراجعـهُ في ذلك وأطلب مِنه أن يَذْكُـرَ الرَّقـم الصحيح.

وكتب صاحبُ مصر إلى موسى:

«بلغني كتابك، وتذكُر فيه أنَّك قد أَسَرْتَ من الأعداء ثلاثين ألف فارس. فاستكثرتُ ذلك، وظَنَنْتُه وَهْمـاً من الكـاتب، فـاكتبْ إليّ الآن حقيقـةَ الأمـر، واحذرِ الوهم»!

ولمّـا عاد الرّسول إلى سجـومـه، وأبلغَ مـوسى كتاب صاحب مصرَ، غضب.

ـ ألا يثقُ القومُ بكلامِنا؟

ـ كلاّ، يا مولاي، إنّما يعتقدون أنَّ هناك خطأً من الكاتب.

ـ ليس هناك خطأٌ، لأنّني جعلتُ الرّجال في صفوفٍ في كلٍّ منها مئة أسير، وجعلت أولادي وأبناءَ عقبة يعدُّونها، فإذا هناك ستمئة صفّ منتظم. حقاً إنَّ في كتابي خطأً يجب تصويبه، فإنَّ عدد الأسرى هو ستون ألف أسير، وليس ثلاثين كما ذكرت.

هيّا يا حَمدان ارتحْ يومَين أو ثلاثة، ثمَّ عدْ إلَينا لتحملَ جوابَنا إلى صاحب مصر. وفيه كتب موسى يقول: «بلغني أنَّ الأمير، أبْقاهُ اللّهُ، يذكرُ أنَّه استكثر ما جاءَهُ منَ العددِ الذي أفاء اللّهُ عليّ، وأنَّه ظنَّ أنَّ ذلك وهمٌ من الكاتب. لقد كان ذلك وهماً على ما ظنَّهُ الأميرُ والعدد، أيها الأمير، هو ستون ألفاً، حقاً ثابتاً بلا وهم».

* * *

هذا النّصرُ المبين الّذي أحرزَه موسى مكّنَهُ من احتلالِ بلادِ المغربِ ما عدا إقليم طنجة. وهو إقليم

فسيْحٌ يطلُّ على المحيطِ الأَطلسي والمضيقِ الَّذي عُرِفَ فيما بعد بمضيق جبل طارق.

لم يكن لمطامحِ موسى من حدودٍ يَقِفُ عِنْدَهَا فراح يَرْنو إلى أَبعدَ ممّا وصلَ إليه بكثير، وكان عبدُ العزيز صديق موسى، قد تُوفِّي، وتولَّى الخلافة مكانَه الوَليد، وقد كثر حسّاده وأعداؤُه. وكان أشدَّهم حماساً عكرمة الَّذي راحَ يُحَرِّض الوليدَ على الفاتِحِ العظيم.

ـ إنَّ آخر ما وصلَنا مِنْ أَخبارِ المغرب، يا عكرمة،أَنَّ موسى قد استكملَ فتحَهُ، ولم يستعصِ عليه سِوَى سبتة.

ـ النّصر، يا مولايَ، يُؤتيه الله مَنْ يشاء.

ـ ما بالُك، أَراك غير مغتبط.

ـ إنَّ موسى، يا أميرَ المؤمنين، قد اصطحبَ أبناءَهُ، وهُمْ يُغيرُونَ معه ويقاتلُونَ إلى جانبه، وكذلك أبناءُ عقبةَ بنِ نافع وطارق بن زياد...

ـ وما في الأَمر؟

ـ أَصبحَ لموسى من الثّرواتِ والقصورِ والأَمْلاكِ ما لأمير المؤمنين.

ـ لا بأسَ في ذلك.

ـ أُصبحَتْ جيوشُهُ، يا مولاي، أكثر من أنْ تُحصى، وهي كاملةُ العدَدِ والعدَّة، وهي لا تعرف سواه آمراً.

ـ أَتَعْتقدُ أَنَّ موسى يجرؤُ أن يخرجَ على أوامرنا؟

ـ أَيَمْتِلك الخليفةَ وسيلةً تجبره على الطاعة إذا ما عنّ لَهُ أَنْ يعصي؟

ـ ما تريد أَنْ تقول؟

ـ غَدَا[٢٥] موسى بنُ نصيرٍ أميرَ كلّ تلك البلادِ المفتوحة، وإليْهِ تعودُ في كلِّ أُمورِها، وبيدِهِ كافة شؤونها. وأخشى . . .

ـ هذا حق طبيعيّ له، لا يتناقَضُ في شيءٍ معَ إرادتِنا، إنه أسدى[٢٦] للأمّة مجداً عظيماً، فأدْخلَ البربرَ في طاعتِنا، وقد بلَغَنا أنّه يعلّمُهم اللّغة العربيّة.

ـ نحنُ، لا نُنكِرُ فضل موسى، يا مولاي، ولكنّنا نَخْشى أنْ يستقلّ بالبلاد الّتي فَتَحها، ويعلنَ نفسه ملكاً عليها.

ـ إنّه رجلٌ ورعٌ مخلصٌ للخليفةِ، ولنْ يقومَ بعملٍ لا نرضاه.

وبينما الوليد وصفيّه[٢٧] عكرِمة في هذا الحوار دخلَ عليهما أحدُ الحجّاب.

ـ مولاي، في الباب رسولٌ من المغرب.

ـ أدْخِلْهُ.

بعدَ قليلٍ، مَثُلَ الرسول بين يدي الخليفةِ فسأله الخليفة:

ـ من أين أنتَ مقبل؟

ـ أرسلني إليكم موسى من طنجة.

ـ وهل تمَّ فتحها؟

ـ نعم يا مولاي.

ـ وهل كنت هناك؟

ـ نعم، وقد اشتركتُ في الحصار والفتح.

وصلت جيوشنا الآن إلى ساحِل البحر، وقد رأينا هناك جبلًا عظيماً وسط البحر. لَمْ يبقَ في البلادِ كلِّها سوى سبتةَ وما حَوْلَها.

ـ مَنْ يحكمُها؟

ـ يحكمُها أميرٌ بربريّ قويُّ الشكيمةِ اسمه يوليان، له سلطان عظيم على رعيَّته من البربر وتربُطُهُ صِلات ودٍّ بغيطشة، ملكِ شبه الجزيرة الإيبيريّة.

ـ هل قاتَلْتُمُوهُ؟

ـ هاجمتْ جيوشُنا سبتَةَ مرّاتٍ عديدة.

ـ وما كان من أمرها؟

ـ كان غيطشةُ يمدُّها مِنَ البَحرِ بالأَعتِدَةِ والمؤَن والرّجالِ فيمكّنها من الصّمود، لم يطق موسى المكوثَ طويلاً أمامَها فاستكملَ فتحَ الإقليم المجاور، وأقام في طنجة حيثُ أَقْبَلَ عليهِ القائدُ طارقُ بنُ زياد.

ـ طارقُ بنُ زياد؟ لم نسمعْ بهِ من قبل.

ـ إنّه قائدٌ أفريقيّ، من أَتباع(٢٨) موسى. عيّنه

حاكماً على المدينةِ وعاد هو إلى القيروانَ، ليقومَ بأعباءِ إدارَةِ تلك البلاد الغنيَّة الشاسعة.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ إنَّ جيوشَنا، يا مولاي، تحاصِرُ سِبْتة، وتضيّق على أهْلِها، ولن يطولَ الأمر حتىً تستسلم لنا، وتَسْقُطَ في قبضتِنا.

ـ وما خطةُ موسى بعد الآن؟

ـ ينصرِفُ قائدُنا المظفَّر الآن إلى الاهتمام بالأسطول. إنَّهُ يسعى الآن في بناءِ مئة بارجة حربيَّة، ويعملُ حالياً على شقِّ قناةٍ تصلُ ما بَيْنَ تونسَ ودار الصّناعة الّتي أنشأها حسانُ بن النّعمان، ويبلغُ طولُها مسيرة خمس ساعات.

ـ وما النَّفع منها؟

ـ ستكونُ بعد إنجازِها ملاذ(٢٩) السّفن العربية عِنْد هُبَوبِ العَواصف.

ـ هذا كلّ ما عندك؟

ـ يغيرُ طارقُ بن زياد من جهتِهِ أيضاً على سبتة وجوارِها، ويمنَعُ وصولَ المَدَدِ والأَسْلحةِ إليها.

ـ بلِّغْ سلامنا إلى موسى، وقبل مغادرتك دمشق إلى القيروان، مرّ بنا واحملْ رسالة منّا إليه.

ـ أيأْذَنُ لي مولاي بالانصراف؟

ـ رافقتك السّلامة.

ـ بعد أن خرج الرّسولُ، التفت الوليدُ إلى عكرمةَ، وسأله:

ـ ما رأيْتَ؟

ـ إنَّ رسولَهُ إليْكَ، يا أميرَ المؤمنين، دليل تعلّق ووفاء.

ـ إذاً اطْمَئِنَّ بالاً، وتعالَ معي نقضي بعض الوقت في لعب النرد.

***

بعد بضعة أيّام عاد الرّسُول ليحملَ كتابَ

الخليفـة إلى موسى حيثُ يقـول فيه: «أتـانا رسـولُـك وأَطْلَعْنا على ما وُفِّقت إليه من أعمالٍ مجيدةٍ في سبيلِ أُمَّتِـك، فسُرِرْنا بما أفاءَ الله علينا من خيرٍ، ولا حاجـة بنا لأن نوصيك بالعدلِ في الرعيَّةِ، ونحنُ معَكَ في مـا أقدمتَ عليه، ونوْليك عـلى كلِّ مـا افْتَتَحْتَ من أقاليـمَ وحواضر.»

***

أخـذ العرب يتـدرّبونَ عـلى المـلاحـة والفنـون البحريّة الأُخرى، لأنّ موسى قرّر بينه وبـين نفسه أن يخوضَ البحر، ويجتاحَ بلادَ الأَنْدَلس الفاتنة والولاياتِ الإسبانيّة الأُخرى المشرقة، حيث كـان قد مضى عـلى حكمِ القوْط الجائرِ لتلك البلادِ قرنَيْنِ ونصفـ القرن. وكان العربُ قـد حاولـوا في النّصف الثّاني من القـرنِ الأوّلِ الهجري غزو إسبانية من أفريقية، فأَغاروا على السواحلِ الإسبانيّة، في عهدِ الملك فمبا القـوطي إلّا أنّهم فَشِلُوْا، وتـوالى عـلى العـرشِ من بعـده أرفنـج وأجيكا وأخيلا.

***

لَمْ تتوقفِ الحملاتُ على سبتةَ وعلى جزرِ البحر المتوسّط، حيثُ أَصابَ العربُ بعضَ النّجاحِ في جزر صقلّية وسردينيا واستوْلَوْا على ميورقة ومنورقة.

... وانتشرتِ الحضارةُ العربيَّة في كلّ أصقاعِ افريقية.

وفي هذه الأثناءِ مات غيطشةُ وخَلَفهُ أخيلا، غير أنَّ النبلاءَ تآمَرُوا عَلَيْه وخلَعُوهُ واغتصبُوْا العرش، وولّوا مكانَه قائدَ الجيشِ القوطي رودريك الَّذي يسمِّيه العربَ لذريق.

تحالفَ يوليان، حاكمُ سبتةَ، معَ أَخيْلا لِلتَّخَلُّصِ من لذريق بسبب ما كان يُضْمِر لَهُ من الحقدِ والكُرْهِ، لأنّ سبق له أنْ أساء التّصرّف مع ولدَيه.

أخذ الحليفان يتدارسان خطةً محكمة تمكّنُهما من الفوز على خصمِهِمَا لذريق. وكان هدفُ يوليان مجرَّد الانتقام لنفسِه.

وكان الحصارُ العربي قد اشتدَّ على يوليان

وانقطع مددُ إسبانيا عنه،ولمْ يبقَ عندَهُ أيّ أملٍ في الصُّمود.

وذات مساءٍ نادى أحد أخصّائه وقال له:

ـ هل لكَ بالذّهاب إلى طنجة؟

ـ وماذا هناك، يا مولاي؟

ـ تحملُ هذه الرّسالةَ إلى طارق بنِ زياد. على جناحِ السّرعَةِ، وتَسَلِّمُه إيّاها قبلَ أنْ تسقط سبتة.

ـ كما تشاء، يا مولاي.

***

وصل رسول يوليان إلى مخيّم طارق، ودفع إليه رسالة مولاهُ الّذي بها يقول:

ـ إنْ شئتَ أنْ تنهي الحربَ بَيْنَنا، فأنا أستطيعُ مع بعضِ رجالِنا أنْ نكونَ أدِلّاء العرب في غزْوِ إسبانيا».

أجابَ طارقٌ الرّسول قائلاً:

«اتصلْ بموسى، فقد تلاقي الفكـرة لَدَيْـه قبولاً، ومن ثمّ نقرّرُ ما يتوجّبُ عمله».

أرسلِ عندئذٍ يوليان لساعتِهِ الرُّسُـلَ إلى موسى وفاتَحَهُ في الأمرِ فأجابه:

ـ إنْ كنتَ جادّاً فيما تقول، اقْصِدْ تونس ثمّ دار الصّناعةِ فيقودُكَ رجالي إليّ،ونرى ما سيكون؟

وما هي إلاّ بضعةُ أيّـام حتّى كان مـوسى يَجْتَمِعُ بيوليان على متن إحدى السّفن الحربيّة العربيّة.

ـ أراكَ، يا يوليان، جادّاً في حديثك.

ـ ولماذا لا أكون جادّاً، فأنتم تملكون السّفن لنقل الـرّجال والأعتـدة والمؤن، وأنّ الأندلس في حـالة من الضعفِ والانهيار لا مثيل لها، وأعيانها متفرّقون شيعـاً وأحزاباً، وملكها المخلوع في قصري لا يملك من أمره شيئـاً، ولن يتوانى عن امدادِكُم بـالـرّجـالِ عـلى أنْ يستعيدَ عرشَهُ المغتصب.

ـ إنّي أتَـطلّع منـذ زمنٍ إلى غـزوِ إسبـانيـا ولكن...

ـ ولكنْ مـاذا، يا مـوسى، الأندلس بـلادٌ فيهـا حسن، يفـوق ما في العـالم أجمع، وقـد جمعت أرضها من المنـافـع والخـيرات وطيب المزارع ووفـرة الثِّمـارِ وغزارة المياه ما عجزتْ أيُّ أرض عن حمله.

ـ ستَجدُ فيها من الخصبِ والثرواتِ ما لا تجـده في أيّ مكـان. أمّا رجـالهـا فجبنـاءُ خـاملون ضعيفـو البأس.

ـ والله إنّك تُشَوِّقني إلى الفتـح، ولكنْي عاجـزٌ عَنْـهُ الآن. وعـليّ قبـل أنْ أقـدِمُ أنْ أكـاشفَ مـولاي الخليفة.

ـ أتسمـح لي إذاً أنْ أقودَ رجـالي إليها، فـأنْزِلُ في ساحلِها، وأقاتلُ مَنِ فيها وأسبي نساءَهـا وأطفالهـا وأستولي على ثرواتها وأعود إليك سالماً معافى.

ـ هل أفهم...؟

ـ أنـا واحـدٌ من رجـالِـك، وسـأُحـاربُ تحت إمْرَتِكَ، هل أنهيْتَ حربَك مع سبتة؟

ـ لقد أنهينا حربنا مع سبتة وسنعاملُكم جميعاً كأخوانٍ لنا.

ـ متى يأذن لي موسى، بالمسير إلى إسبانيا؟

ـ ساعةَ تشاءُ يا يوليان.

ـ جمع حاكمُ سبتة، من أهلِهِ جمعاً غفيراً، وسار بهم على مركبتين إلى ساحل إسبانيا، فنَزِلَ فيها، وأغارَ وسَبَى وسلبَ، وعاد مع رجاله سالمين إلى سبتة.

شاع الأمرُ بَيْنَ النَّاسِ وبدا لموسى أنَّ الرّجل لا يخاتلُ فاطمأنَّ إلَيْه. ولم يرَ بدّاً من الرُّجوعِ في الأمرِ إلى الوّليد. فأَوْفدَ إليْهِ مِنْ ثقاتِهِ مَنْ يُطلعُه على الواقِعِ.

تردّد الخليفة بشأن غزو إسبانيا للأخطار الّتي قد يتعرَّض لها العربُ، كما خَشيَ أن تضيعَ أفريقيا من أيديهم.

ـ ما بال أميرُ المؤمنين؟

ـ آنظرْ ما يقول رسلُ موسى.

اعتقدَ عكرمَةُ أَنَّ الإسبانَ سوفَ يتغلَّبوْنَ على موسى ويقضون عليه، فيتخلّص منه دون أَنْ يكونُ لهُ ضلغ في مصرعه.

ـ إنَ الفكرةَ رائعة حقاً، يا مولاي.

ـ ولكنّي ضنين بحياة العَرب، وغير واثق من النَّصر.

ـ دعْهُ، يا مولاي، ولا تثبطْ هُمته، فلعلّ الله يساعدُهُ على فتح مبين.

وعاد الرّسولُ يَحْمِلِ رسالَة الوَليد وبها يحضُّ موسى على الفتح، وممّا أُوصاه به قال: «إيّاك وأَنْ يخدعَك يوليان، ويوْقعَكَ في مكائِده، فتندمَ بعدَ فواتِ الأَوان».

اعتمد القائد العربيّ الحذَرُ في التَّعامُل مع يوليانَ، بالرُّغم من تسليم سبتةَ، معقله الحصين، للعرب، ودعمه إيّاهم بالسّفن والأدِلاّء، خوفاً من أَنْ يتعرّض لملامة الخليفة. فأَرسل في طلب طريف بنِ مالك، وما إن مثُل هذا بين يدَيْه حتّى قال له:

ـ لكَ عندي مهمَّةٌ في غايةِ الخطورَةِ، فهلْ أنتَ لها؟

ـ مرْ يا موسى.

ـ لقد قرَّرْت أنْ أفتَتِحُ إسبانيا.

ـ نعمَ الفكرة.

ـ ولكنّي ما زلتُ غير واثقٍ، من صاحبِ سبتة، وأودُّ أنْ أتأكّد أنّ الفتحَ ميسُورٌ، ويجبُ أنْ تتوافرَ لديَّ المعلوماتُ الوافيةُ عن مدى المخاطر التي يتعرّض لها جيشُنا في حال القيامِ بهجومٍ على إسبانيا.

ـ إنَّ تصرُّفكَ هُوَ الحكمةُ عينها. وما الّذي تريدُني أنْ أفعل؟

ـ خذْ خمسماية مقاتل من رِجالِنا الأشدَّاء، ولْيكنْ يوليان دليلَك، واتَّجهْ بهم إلى السّاحل الإسباني، واسْتَكشفِ الطريقَ، وتحقّقْ بنفسِكَ مِنْ أنَّ الخلافاتِ تعْصُفُ بَيْنَ لذريق المغتصب وأخيلا ملك الأندلس

المخلوع، واتَّصلْ بهذا الأخير إنْ أمكنَكَ الظرف، وانظرْ في ما يريد.

ـ أرى أنّ جميعَ الظروف مؤاتية كي نقومَ بغزوة موفَّقة.

ـ إذهبْ نصرَكَ الله، ياطريف، ولا تعدْ إلَيْنا إلّا ظافراً.

***

ما هي سوى أيَّام قليلةٍ حتَّى كان طريفُ يتّجهُ على متنِ أربعة سفن حربيّة من سفن يوليان إلى ثغور الأندلس الجنوبيّة، لم يلقَ في البحر أيَّة مقاومة. ولمَّا اقتربَتِ الحملةُ من السّاحل الإسْباني أرسلَ طريفٌ عشرةً من رجالِهِ للاستكشاف، ودراسة طبيعةِ السَّاحِلِ الّذي سيَنْزِلوّن فيه، ومدى قوةِ التّحصيناتِ التي على المهاجمين اقتحامها.

وبعدئذ تقدَّمَتِ السُّفنُ، ورسَتْ في أحد الثّغور، ونَزِل المقاتِلُوْن إلى البِّر، وراحوا يجتاحون القرى،

وَيَسْتَوْلون على الغنائمِ، ويتنقلُون آمنين مِنْ ثَغْرٍ إلى آخر، وكان رجال أحيلا يساعدونهم في ذلك ثمّ عادوا سالمين إلى المغرب.

عندئذ تأكّدَت لطريف سهولةُ الاستيلاءِ على الشّاطِىء الإسْباني.

٥ ـ طارق بن زياد يباشر احتلال الأندلس

كان موسى ينتظرُ عودةَ الحملةِ بفارغِ الصبر، فلما رأى النجاح الَّذي أحرزتُه، قرَّر التحرُّكَ بأقصى ما يكون مِنَ السُّرعة. وفكَّر بطارق بنِ زياد الذي كـانَ له شأنٌ في الفتوح العربيَّـة، ليُشْرِكَـه بمثلِ هـذا الأمر الخطير.

ـ يا طارق، قد وَلَّيناكَ قِيـادة الجيش في إسبانيا، فاجمعِ الرِّجالَ،وتوجهْ إليها لتوِّكَ،وليأتِكَ اللّه القوةَ كي تـظفرَ بمـا ابتغَيْناه مِنْ نصر. فلكَ من صـدقِ العزيمـةِ وقوّة الشكيمَة، وشدّة البأس، وصـلابـةَ العُود، وحسنِ الكلام، وخبرة في النّاس، ما يجعلُكَ أهلاً للاضطلاع بهذه المهمَّة الجليلة. وسيكونُ بجانِبك يوليانُ وطريفُ، وخيرة قادة العرب.

أخذَ اللّه بيدك.

ولمَّا تمَّتِ الاستعدادات، وجهَّز يوليان السُّفنَ بكلِّ ما تحتاج إليه الحملة مِنْ أعتدة وسلاحٍ ومؤنٍ، سار طارق على رأسٍ هذا الجيش الَّذي يتألف من سبعةِ آلاف مقاتلٍ جُلُّهم منَ البَرْبَرِ. ووقف على متن سفينته يتأملُ عجائبَ الكونِ، وَيَنْظُرُ إلى السماءِ متوجِّهاً إلى الله بقلبِهِ، طالباً منه العَوْن والقوّة.

ألَقَتِ السُّفنُ مراسيها قبالةَ الجزيرة الخضراء عندَ صخرةٍ جبّارةٍ حَمَلَتْ اسمَ طارق، وتُعْرَفُ حتىً اليوم باسمٍ «جبل طارق». وبعد أن أخذ الجنود قسطاً من الراحة أكملوا مسيرَتَهُم، فقادهم يوليان إلى مكان آمنٍ يَعْرِفُه في جنوبي إسبانيا، يقال له البحيرة. نَزِلتْ جيوش طارق في تلك المحلة، وتوزَّعت على الساحل القريبِ دونَ أَنْ يعتَرِضَها معترض.

كانت الثورة مشتَعِلَة في إسْبانيا بينِ لذريق وأخيلا، فأخذ الإسبانيّون يهرُبُون أمامَ العربِ المهاجمينَ حاملينَ ما خفّ من أمتعتهم.

عَلِمَ لذريق بنزول العرب على أرض إسبانيا

فأدرك الخطر الَّذي تتعرَّضُ له بلادَه. فجمع قادة الرأي وأعيانَ البلاد، وقال لهم: «يحدق بنا اليوم خطرٌ محقّق، فنحن بحاجةٍ إلى جهودكم كي نستطيع أنْ نُقاوم العرب وننتصِرَ عليهم. ولا أخفيكم أنَّ القوم يتمتعون بشدّة المِرَاس، فعلى كلٍّ منكم أن يُحَمِّل نفسَهُ قدْر طاقتها، ولْنَتَّجِه بقواتِنا جميعاً إلى لُقياهم للوقوف بوجه زحفِهم الجارف، وردّهم على أعقابهم خاسرين».

وهكذا اجتمعت لدى لذريق جيوشٌ جرّارةٌ قدِّر عدَدُها بسبعين ألف محارِب. ولكنّ هذا الأمر لم يثنِ طارقَ عن عزيمتِه، فأخذ يجتاحُ القرى والقلاعَ والحصون، ويتقدَّم بسرعة إلى داخل البلاد، ولما حَمل إليهْ رسلُه خبرَ جيوش لذريق، بَعَثَ إلى موسى يطلبُ المزيد من المدَدِ(٣٠) للتَمكّن من الصَّمود في وجهِ جيوش خصمِهِ، فأنجدَه بخمسة آلاف محارب.

وقَعَت ذات يوم امرأة عجوزٌ بينَ أيدي العرب، فألحَّت على مَنْ أسَرَها أنْ يَسْمحَ لها بمواجهة طارق فاقتيدَتْ إليه.

ـ ما بالك، يا امرأة؟
ـ هل أنت قائد الجيوشِ العربية؟
ـ نعم.
ـ هل لكَ شامَةٌ في كتفِكَ الأيْسَر؟
ـ ولماذا؟ ما شأنُ الشّامَة؟
ـ قل لي.

أمر طارق أحدَ الحضور بالكشف عن كتفِهِ اليُسْرى فإذا فيها شامة.

ـ هل أنتِ ساحرةٌ.
ـ كلا...
ـ إذاً؟
ـ ما اسمك يا رجل؟
ـ طارق.
ـ اسمع، يا طارق. كان زوجي عالماً بالغَيب، مدركاً للحدثان قبلَ وقوعِها. وقد ردّد على مسمعي مراراً أنَّ أميراً غريباً سيحتلُّ الأندلس. وهو رَبْع القامة، ضخم الجثة، أسودُ العينين يحمل على كتفه شامة يَتَمَنْطَق بالسيف. وأرى أن هذه الأوصاف

تنطبق عليك. فأنت هو ذلك الأمير.

ـ ماذا بعد؟

ـ سيكون النّصر بجانبك في جميع المعارك الّتي تخوضها. ستخضع لكَ أقاليمُ بلادي بأجمَعها، ولكن هناك خطرٌ يتهدَّدك ويأتيك على يد أمير آخر يحسُدكَ. لن يستطيعَ الصُّمود في وجهِكَ. استبشر طارق خيراً وأمر بإكرام العجوز وإطلاقها. ولكنّها رفضت وفضّلت ملازمَةَ الجيوش الزَّاحفة لتتأكَّد من أنَّ ما قاله وتنبّأ به زوجها قد تحقّق.

اقترب جيش لذريق، واشتَّدت مخاوف العرب حين علموا بدنوّه وتخاذلوا. أما طارق فقد ازداد إيماناً بالنّصر ووثوقاً من نفسه. ورأى أن يشدِّد من عزائم الجيش، ويحثّه على التذرّع بالصَّبرِ والإقدامِ على الحربِ، فوقف فيه خطيباً، قال:

«أيّها الناس، أين المفر؟ البحرُ مِنْ ورائكُم والعدوُّ أمامَكم، وليسَ لكم والله إلاّ الصِّدق وَالصَّبر. واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيعُ من

الأيتـام عـلى مـائِـدةِ اللِّئـام. وقـد استقبلكم عـدوُّكم بجيوشِه وأسلحته وأقواته[٣١] موفـورة. وأنتم لا عَون لكم إلّا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلّا ما تستخلِصُونَه من أيدي عدوّكم».

وفي صباحِ اليـومِ التّـالي، أقبلتِ الجيـوش الإسبـانية الجـرّارة وعلى رأسهـا لـذريق محمـولاً عـلى دابتين، وفوقَهُ مظلَّة مزيَّنة بالأحجار الكريمة من ياقوت وزَبَـرْجَدٍ ودرٍّ، وكـان يرتـدي أفخرَ ثيابه، وسيفُـه إلى جانبه، يحفُّ به[٣٢] قادتُه وأعيان القوم، وهم يلبَسون الزردَ، ويعتمِرون الخوذَ الحديديَّة، ويتقلَّدون السيوف والقسيّ.

التقى الجيشـان على مقـربـة من نهر وادي لكة، الذي يصبّ عند رأس الطرف الأغر.

امتشقَ العربُ سيوفَهم، وكلُّهم إيمـان بقضيتِهم وإخـلاصٌ لقـادتهم. وارتفعت صيحـةُ الحـرب من حناجرِهم، فشقَّت عَنَانَ السَّماء، وإذا بهم يحملُون حملةَ الـرَّجُلِ الـوَاحِدِ عـلى جيـوش الأعداء، فتـدَحْـرَجَتِ

الرؤوس عن الأكتاف، وإذا بالأعداء يتراجعون تحت وطأة العرب الزاحفين.

صُعِقَ لذريق، وصاح بقادَتِه ورجاله كي يصْمدوا، ويصدّوا هجوم العرب. وتوزَّع قادة هؤلاء ينظّمون صفوف جنودهم، ويتَّخذون لهم مواقع جديدة قبل أن يكرّوا ثانية.

وفي هذه الأثناء أقبل يوليان ومعه أبناء عطرشة الملك المخلوع، يطلُبونَ مقابلة طارق فخرج إليهم سائلاً:

ـ ما الذي تبغون؟

ـ جئنا نسألك الأمان على حياتِنا وأولادِنا ونسائنا وأطفالنا.

ـ عليكم الأمان.

ـ دعانا لذريق إلى مؤازرتِهِ في هذه الحرب، ونهانا عن القعود عن نصرتِه، وطلب منا الميل إليه وحذّرنا من عدمِ الاستجابة. ولكنّنا قلْنا، إنَّ لذريقَ قد غلب على سلطاننا وليس من أهله. وإنما كان مِن

أتباعِنا وقائد جيشنا، فقد اغتصب عرشَنا، واستولى على أملاكِنا وضياعنا. وفكّرنا مليّاً، بما يدعونا إلَيه، وقلنا إنَّكم قوم طارئون لكم بلادكم الشّاسعة وأقاليمكم الخصبة، ولا حاجة لكم إلى استيطان بلادنا، إنَّما مرادُكم الغنائم، ثمَّ تخرجون عنّا. فجئْنا إليكم ننصرُكم في حربكم، حتى إذا انصرفتُم بعدَ النصر أقعدْنا في مُلْكِنا مَنْ يستحقُّه.

ـ الآن وقد أمَّنتكم على حياتكم، وأظهرتم نواياكم، أراني مخالفاً لكم في الرأي والتفكير.

ـ كيف ذلك وقد مِلنا إليك، ووضَعْنا قوانا تحتَ تصرُّفِكَ، واخذنا أنفسنا بنصرتك؟

ـ إنكّم، تطلبون منّي أن أعينكم على استعادة ملكِ أبيكم والانصرافِ عنكم.

ـ إذا ظفرنا، تعيدُ إلينا ضياعَ والدِنا بالأنْدَلُس وعددها ثلاثة آلاف، وكلّها نفائس مختارة.

فكّر طارق بينه وبين نفسه: «إنّ مَنْ يخُونُ بلاده، لَن يتجرَّأ على قوم طارئين. وأراد أنْ

يــداوِرَهُم حتى يبقــوا في صفــوفِــه ولا يَسْتَعْــبِدِيهم فأجابهم:

ـ كيف تـريدُون أن أعـدَكم بسديـارٍ ليست لي، وبقـرىً هي ملككم. حـارِبُوا لـذريقَ، وتغلّبُوا عليـه واستعيدوا مِنه ما اغتصبَه منكم.

ـ أتسمح لنا أن نحارب في صفوفكم؟

ـ إذا شئتم، أنْ تنـازِلُـوا لـذريقَ، فعليكم أن تنضمّوا متفرِّقين إلى كتائبنا، وتطيعـوا أوامرَ قادتِنا، ولا تخرجوا على طاعة أحد منّا. وها هو يوليان قد سبقكم، ويحـاربُ في صفوفِنـا كَواحـدٍ منا. ويتـدخَّلُ مـع جند لذريق وقادته، ويستميل إلينا أعداداً لا تحصى، نَدْمُجُها في كتائبنا...

ـ نحن أبناءُ ملوكٍ، لم نعتدِ الانقيادَ لأحد...

ـ هذا عائد لكم، لكنّنا نخـيّركم بين أن تبقـوا على حياد، أو أن تكـونوا واحـداً منّا، فـإن رأيْنا منكم الانـدفـاع والإخـلاص والحنكـة والمعــرفـة، عُــدْنـا فسلَّمْناكم القياداتِ الّتي تطلبون.

وكان كره أبناء عطرشة، أعمى قلوبهم، فقبلوا

بشروط القائد العربي، فانضمُّوا إليه مع رجالهم، فوزَّعهم على الكتائبِ، وكانت جُلُّها(٣٣) من البربر، وليس فيها من العربِ سوى القليل.

كان نهر البرباط يفصل بين الجيشَين. احتفظ في الأيّام الثلاثة الأولى كلٌّ منهما بمواقعه. واقتصرت المعارك على بعض المناوشات والاشتباكات، ولم يخسرْ الفريقان سوى قليلٍ من الرّجال.

وكان أبناءُ عطرشةَ يَعرِفُون البلادَ، ومعابرَ النهر، فقادوا بعضَ الكتائب العربيّة ليلاً، وساعدوها على اجتياز الوادي بأمان. ولما أطلَّ فجرُ اليوم الرّابع تَمَّ الالتحامُ بين العربِ والإسبان التحاماً كاملاً. استبسل العرب أيّما استبسال، وقد ساعدهم يوليان وأبناء عطرشةَ، وأبلوا البلاء الحسَنَ، واظهروا كلَّ جرأةٍ وإخلاص. وقد قُتل في هذا اليوم خَلْقٌ كثير من الفريقَين.

بقيتِ الحالُ هكذا أيّاماً أخرى، إلاّ أنه في اليوم السابعِ تخاذل وانهارَ جناحا الجيش الإسباني، وركّز

طارق وقادته هجماتهم العاصفة عليهما، فانكشف قلب الجيش الذي يقوده لذريق نفسه.

وكان العربُ قد احتفظوا بعدّةِ كتائب لم تشترك بالقتالِ، فما إن رأت ما أصابَ الإسبانَ حتى عبَرت النهرَ بسرعة، واتّجهت إلى الوسط.

عندئذ هجم طارق يساندُه بعضُ شجعانِ العرب وقادتِهم، وراح يشقُّ صفوفَ الأعداءِ حتّى وصل إلى أمامِ لذريق، وسيفه يقطر دماً.

ـ ها أنتَ، يا ابن الخبيثة.

ـ مَنْ أنتَ، يا رجل؟

ـ أنا طارق بنُ زياد. جئت لنِزالِك.

ـ أين أنتم، يا رجال، أُلقُوا القبض على هذا الوقح.

تقدّم بعضُ الجنود من طارق، ولكنَّ رفاقه ضربوا طوقاً حوْلَهم، وأعمَلُوا السّيفَ فيهم حتّى أفنوهم عن آخرهم.

ارتجف لذريقُ في داخِله، وامتشق حسامه ووجّه

ضربة إلى طارق أصابت منه الصَّدرَ فأدْمَتْه.

غضب طارق وصاح:

ـ خُذْها...

أصابت الضربة كتف لذريقَ فقطعتها. هوى الرجلُ عن صَهْوَةِ جواده، وركض صوب النهر، وارتمى في لجَّته.

عندما رأى القوطُ مقتل لذريق قائدهم صاحوا صيحات الخوف والهلع، وولّوا الأدبار. وتتبّع جنود العرب فلولَ الأعداء الهاربةِ، وأعملوا السَّيفَ في رقاب مَنْ ظفروا به.

انتصر العرب وفازوا بغنائمَ لا تحصى، وأصابوا عدداً كبيراً من الجياد.

.... وأصبحت الأندلسُ عربيَّة.

***

أحدث انتصار طارق بن زياد، في الأندلس، دوّياً هائلاً في المغرب والمشرق، فأقْبل النّاسُ من كلّ صوب للانضمام إليه والالتحاق بالجيش الغانم، فلم يردّ واحداً منهم. وما هي إلّا أيّام حتّى أصبحَتْ

إسبانيا بأكملها بين يدَيه. ولم يعدْ طارقٌ بحاجة إلى جيش لجب للقضاء على المقاومة الضئيلة الَّتي كان يلقاها في بعضِ المدن، التي كانت تتساقطُ بين يدَيه كأوراقِ الخريف دون عناءٍ يذكر.

وتابع طارق مسيرة الفتح المظَّفر، فراح يستولي على الممتلكات ويفرض الجزية. ويصالح ويعادي. وعندئذ رأى أَنْ يوفد الرُّسل إلى موسى يُطلعُه على ما أحرَزَهُ من نصر. ولما بلغَتْهُ أَخْبارُ انتصاراتِه نَدِم على توليةِ طارقَ، قيادة الجيش، وتمنَّى لو أضاف هذا المجد إلى أمجاده السَّابقة.

ـ يا حامد.

ـ مولاي.

ـ في أيِّ اتجاه يسير طارق؟

ـ إنَّه يتقدَّم باتِّجاه طليطلة.

ـ ماذا تقول؟

ـ ما سمعته منه.

ـ أدْرِكْهُ بأسرع مـا يمكن من الوقت، وقلْ له ليعسكر حيث تُدْرِكُهْ، ولينتظرْ قـدومنا. فـإنَّ ما بلغـه الجيش العـربي سيعرقـل مسيرتـه. وقد يلَمْلِم القـوطُ قـوّاتهم ويغـيرون عليـه، فيعـرِّضَ حيـاةَ الكثـيرين للخـطر. يستحيل عليـه أنْ يتوغَّـل في البـلاد. وهـل يجهل المخاطر الّتي يتعرّض لها؟

وفي هذه الأثناء كان طارق قـد استشار رؤسـاء الجيش،وعمـد إلى قسمته ثـلاثة أقسـام. الأَوَّل بقيادة مغيث بن الحـارث،ووجَّهه إلى قرطبة، والثَّـاني بثّـه في جميع أنحاء الجنوب لفتح القرى العاصيـة،وتأديب من تسوّل له نفسه العصيان، وقاد هو نفسه الكتيبة الثّالثة إلى طليطلة.

وصل مغيثٌ بفرسانه إلى قـرطبة فـإذا بهم أَمام مدينةٍ حصينةٍ، فأدرَكَ أَنَّ فتحَها يتطلَّب كثيراً من الجهد والوقت.

ضرب مخيّماتِ جنده عـلى بعد فـرسَخَيْنِ منهـا وراح يضيِّق الخنـاقَ عليها، ويمنـعُ أهلَها من الخـروج

وهو يجهل أنَّها خالية إلّا من أميرها وأربعمئة محارب يحرسُون الأسوار.

وفي اليوم الثَّاني أتى الحرّاسُ إلى مغيث برجل فسأله:

ـ مَنْ أنْت؟

ـ أنا راعٍ.

ـ من أيّ بلد أنت؟

ـ من قرطبة.

ـ لماذا أنت خارجَ الأسوار؟

ـ كنت أرعى المواشي عندَما وصَلْتُم وعسكَرْتُم في هذا المكان.

ـ ولماذا لم تأتِ إلَيْنا؟

ـ خفتُ بطشَكم.

ـ إعلم، يا هذا أنَّ شِيَم[٣٤] العرب تقف حائلاً بينهم وبين القتل دون سبب.

ـ أصحيح ما تقولون؟

ـ نعم.

ـ والأغنام؟!

ـ أَلَيْست لك؟

ـ بلى.

ـ احتفظ بها، ألَيْسَ عندَكَ حيلةٌ لدخول البلد؟

فكَّر الرّاعي قليلاً ثمّ أجاب:

ـ بلى.

ـ وما هي؟

ـ إنِّي أعرف ثغرةً سرِّيَّة تحتَ أحدِ الأسوار.

ـ أتقودنا إليها؟

ـ نعم...

ـ إذاً ابقَ معنا حتّى يعمَّ الظّلام.

هطلت سيولٌ غزيرةٌ ذلك المساء، أعانتِ

العـرب على الاقـتراب من السّـور دون أنْ يسمـعَ الحرّاس وقع حوافر الخيـل. ودخل بعض الجنـود من الثّغرة، فقتلوا مَنْ قتلوا،وفتحوا أحـدَ أبـواب أسْـوار المدينة. فدخل مغيثٌ ورجـالُه ودارتْ معـركة طـاحنة على أسوارِ المدينة وفي أزقّتها، إسْتسْلم في إثرها كلُّ مَنْ بقيٍ من جنود في المدينة وهرب أميرُها، فـلاحَقَهُ مغيثٌ حتّى قبض عليه،واقتادَه أسيراً.

وبينـما طارق يخـترق هضـاب الأنـدلس وصـل رسولُ موسى. فلم يتـوقّف خوفـاً من أنْ يخفّ حماسَ جنـده،وأنْ يفيـدَ الأعـداءُ مِنْ هَـذه الفـترة،فيجمعـون فلُولَهم،ويستعيدون قِوَاهم،ويضايقون زحفَ جيشه.

أكْمـلَ زحفَهُ حتّى وصـل إلى طليطلة،فـإذا بهـا مدينةٌ خالية إلاّ من النّساء والعجّـز،فدخلهـا وغنـمَ منها غنائم لا حصرَ لها، وعدداً هائلاً من التّحفِ والنّفائس وكمّيّة عظمى مِنَ الذّهب والفضة والحجارة الكريمة.

قـرّر طارق أنْ يقضي فصـلَ الشتاءِ في طليـطلة لاسِيّما وأنّ الحملة الّتي قادَهـا والحـروبَ التي خـاضهـا

أَنْهَكَتْ قواهُ وقِوَى جيشه.

ولم يمضِ وقت طـويـل حتّى لاحـظت أعـينُ العـرب حـركـة تجمّـع للقـوط وراءَ الجبـال الّتي تـلي طليطلة، وبدا أنَّ القـومَ استفاقـوا من هَوْلِ الصّـدمة فبدأوا ينظّمون صفوفهم.

جمع طارق قادته، وراح يتشـاوَرُ وإيَّاهُم في مـا يتوجّبُ عَملُه لدرءِ الأَخطار المحيطة بهم. لقد توغّلوا في قلب البلاد، وتوزّعـوا في الأَماكن المحتلَّةِ جـالياتٍ للحفـاظ على الفتح، فهـل يستـطيعـون المقـاومـة وردّ القوط؟

لم يرَ بـدّاً من الكتـابـة إلى مـوسى مستنجـداً: «استولى الهلعُ على نفـوس الإسبان، فـولّوا من أمـامنا هاربين، ففتحْنَا مدنَهم وقراهم،واستوْلَيْنـا عَلى بيوتهم ونفـائِسهم، مما دفعنـا إلى عَـدَمِ التـوقّف. إستكْمَلْنـا الفتحَ، فشاءَ الله لنا، أنْ ندخل كورةَ(٣٥) ريةَ ومالقـة أكبرَ مدائنهم، وكـورة البيرة وغـرناطـة وأريولـة. هذا وقد سَيْطرْنا على عـاصمة البـلادِ دونَ مقاومـةٍ وتابَعْنَـا

فلولَ الهاربين من القوطِ والآهلين إلى مدائن ما وراء الجبل، وأجبرناهم على الطّاعة والاستسلام، بلغنا في تقدّمنا مدينة المائدة، وتمكّنّا من بلوغ جليقية في الشمال الغربي من الأندلس. وقد تركنا في كلّ مدينة فتحناها جاليةً لحمايتها، وعُدْنا مع قادتِنا وفِرَقٍ من جنودِنا البواسل إلى العاصمة.

إنّنا تلقّينا أوامركم في مكان لمْ يكن باستطاعتِنا التوقّف عندَه خوفاً مِنْ أنْ تتجمّع فلولُ الأعداءِ علينا أو تتحصّن في المدائنِ التي دخلت في طاعتنا، وقد أدركنا، بعد أن ركدت فينا سكرةُ النّصر، الأخطار الّتي تحيق بنا. إنَّ الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث».

ولما عاد الرّسول إلى طارق حمل إليْه جواب موسى وفيه يقول: «إنَّ خبرتَنا العسكريّة ونظرتنا المستقبليّة إلى الأمور دفعتنا أنْ نرسل لكم الرّسلَ ونأمُركم أنْ تتوقّفوا عن الزحف وإنْ كان فيه ظفرٌ مبين للأمّة العربيّة، فتجاوزتُم ما أمرناكم، وضربتم عرضَ الحائط بما أوْصَيْناكم به، واسترسلتم في

عِصيانكم،وتوغَّلْتُم في بلاد مجهولةٍ مأخوذين بخمرة الفوز وعرّضتُم حياة العربِ للأخطار. نحن في طريقنا إليكم، فحافظوا على ما أفاءَ الله على الأمّة من رِفْدٍ،وليكن مَنْ اؤتمنتم عليهم أمانة في أعناقكم.»

* * *

استشعر طارق غضبَ موسى، وأدرك بعدَ فواتِ الأَوانِ أَنّ مخالفةَ أَوامرِهِ عرَّضته لسخطه.

أخذ القائد الشابُ يحصِّن المدنَ وينظِّم الفتوحَ ويرسل الرسلَ إلى رؤساء الجاليات يوصيهم بما أوصى به موسى.

٦ - موسى يشارك طارق في فتح الأندلس

ولّى الشّتاءُ بأمسطارِهِ وعواصفـه، وأقبل الـرّبيع بلطفِ نسائمه. وكان موسى قد استكمل اختيار قادتِه وجنـده،وإذا به عـلى رأسِ جيشٍ كثيفٍ مؤلَّفٍ من ثمانيةَ عشرَ ألفِ مقاتل، مشى به إلى الأندلسِ بعد أن استخلف ابنَهُ الأكبرَ عبدالله على طنجةَ وسلَّمه زمامَ الأمور فيها. وكتب إلى ابنه مروانَ يستعجلهُ إلى نجدة طارق.

وصلتِ الجيوشُ العربيَّةُ إلى الأندلسِ في شهر حزيران من عام ٧١٢م. ونزلت في مكان يعرف حتى اليوم باسم مرسى موسى، وحطّت فيه عدّة أيّام لتَنْظيم الصفوفِ قبلَ الإقدام على القتال.

وفي مرسى، جمع موسى أهلَ الـرأي،وتشاوروا

في الخطةِ الواجبِ اتّباعها. فقال أحَدُ القادة: أرى أنْ نَسْلكَ الطّريق الّتي سلكها طارق، فنقوّي الجاليات ونرهب مَنْ تسوّل له النّفس من القُوْط بالاعتداءِ عليها.

أجابَه موسى:

- لا أرى رأيَكَ، إنْ جئت إلى هذه البلاد فلكي أدعمَ الفتح وأرسّخَه وأرسيه على أسس مكينة لا تزعزعها هجمات القوط. فأرى أنْ نسلكَ طريقاً آخر، ونفتحَ مدائن غير التي فتحَها طارق. أليس مِنَ الأفضل أنْ نتبع طريقاً أخرى.

- يا موسى، ألم تأتِ لتغيث طارق؟

- بلى، ولكن أيْن نحنُ مِنه الآنَ، هو في أواسط الأندلس، فإنْ سلكْنا الطريقَ التي سلكها،أو مشينا للفتح عن طريق آخر، ألا تكونُ النتيجة واحدة؟ ماذا يضيرنا لو فتحنا ما لم يُفْتَحْ،واستوْلينا في طريقنا على ما لم يستولِ عليه؟

قال أحدُ قادةِ يوليان الّذي كان يحضر المجمع:

ـ نحنُ نـدلُّك عـلى طـريق هي أشرف من طريقه، وعلى مدائن أعظم خطراً من مدائنه، لم تُفْتَحْ بعد، فيفتحها اللّه على يديك.

ـ أرى أنَّ استرسال طارق في الفتوح، يعـرّض خطوطَ مواصلاتِه إلى أخـطارٍ داهمـةٍ علينا أن نجدَ خطوطاً أخـرى آمنة. فإنَّ مدائن الشَّرقِ والغرب لا تـزالُ حرَّة، تستطيع أنْ تتنـادى وتتألّبَ علينـا، وتهـدِّدَ مسيـرتَنا، فمن الأفضل أن نقتحمها، ونسيطر عليها لنأْمَنَ شرّها.

وافق المجتمعون على رأي موسى، ورأَوا أنْ يسيروا إلى أشبيلية، ويغـزوا ما تبقّى من شرقي وغـربي البلاد. وكانت قرمونة، أحصنَ مدنِ هـذه البلاد، ففتحهـا العـربُ عنـوة، وسـاروا منهـا متقـدّمـين إلى إشبيلية. وكانت هـذه المدينـة من أفخم مدنِ إسبانيا وأغناها آثاراً وأشدّها غنىً.

وصلتِ الجيوشُ العربيّة إليها، وضربتِ الحصارَ عليهـا فعَصَتْ وامتنعت. رأى القـائـد العـامُّ، أنّـه

يتوجّب التغلّب عليها كي لا تتعرَّض الكتائب العربيّة للعـزلِ بعضهـا عن البعض الآخـر. وخـوفـاً من أنْ تُهَـاجَمَ متفرِّقـة،وتصبح أجنحتُهـا مكشـوفـةً. فتـوقّف عنـدها ومـا زال بها حتّى اقتَحَمهـا وسيطرَ عليهـا بعد قتال عنيفٍ،وأباحها للجندِ لمدة ثلاثة أيام.

اتّجه من ثَمَّ شمالاً قـاصداً طليـطلةَ، وبلغ في مسيرتِه مدينةً ماردة،وهي مملكة يحكمها أمراءُ الأَندلس وتمتـازُ بقصورهـا الواسعة وكنـائِسِهـا الفخمة وكـثرة مصـانعها،فوقف العربُ عندها ولم يتمكَّنُوا منها حـرباً. فضربوا الحصارَ حوْلها. وكان محاربو المدينـة يخرجـون من الأسوار إلى ظاهرِ المدينة، ويغيرون عـلى العرب، فيقتُلُون مَنْ يقتلون، ثمَّ يرتدُّون إلى داخلِ الأَسوار.

طـالت المدّةُ والحـالُ لم تتبـدّلْ،فـاستنبط مـوسى دبّابة كُبرى احتمى بها مغاويرُ من الجيش،واقتربوا من أحـدِ أَبراج السور لفتح ثغـرةٍ تسهِّـل أمـامَهم سبـلَ دخولِ المدينة. وتقدّمت فرقة تـرتدي الـدّروع والخوذ مُسلّحة تسليحاً كاملاً لحماية المغاوير.

دامت أعمال الحفريات أَسابيع عديدة، وَوُفِّقتِ الفرقةُ في النهاية في ثقب السُّور وانتزاع حجارته، غير أَنَّها وجدتْ وراءه مادَّة صُلبَةً عَجَزَت عنها معاولُهم وتراجعت أدواتُهم عاجزة عن تفكيكها، فذهبت أتعابهم أدراج الرياح.

لم ييأس موسى من أمسره، ورفض أنْ يترك المدينة بِيَدِ الأعداء، فبقي على حصاره لها، حتىّ إنَّ القوطَ لم يعودوا يجرؤُوْنَ على فتح أبواب أسوارِها للانقضاض على العرب كما كانوا يفعلون. وشدّدَ العرب الحصارَ عليها ومنعُوا الخروجَ مِنْها. وهنا تجلّى أبرزُ ما تمتَّع به موسى من حسٍّ عسكريٍّ سليمٍ ومهارة حربيَّة بلغت حدَّ الإعجاز وروح نضاليّة ومثابرة حتىّ بلوغِ الأَرَب خاصَّة عند شيخ بلغَ الخامسةَ والسبعينَ من عمره.

ولما تأكَّدت مارِدَةُ، أنَّ العرب باقون، وأن لا سبيل للنجاة إلاّ في الاستسلام، فتحَتْ أَبوابَ أسوارها وتركت أبراجها ثيباً(٣٦)، وخرجت حاميتُها إلى موسى طالبةً الأمانَ والصلح.

أجاب موسى:

ـ منحتُكم الأمـان وعقـدْتُ معَكَم الصلحَ، بشرط أَن تكـون أَمـوال مَنْ هـرب مِنْ أَهـل المـدينـةِ وكنـوزِهِ وممتلكاتِـهِ غنيمـةً للعـربِ وديَّـة(٣٧) لمن قُتِـلَ منهم، دون أن يكون لأحد الحقُ في المطالبة بها.

وإذا سوّلتْ لكم النّفسُ بالاعتـداءِ على الجـالية الّتي سأتركُهـا للمحافـظةِ على المدينةِ، بعـدَ أن ابتعدَ عنها، فإنّي ساعودُ إليْها عندئذٍ، وأستولي عـلى كلِّ مـا فيها وأُدمّرُها تدميراً كاملاً، وأدعها قاعاً صفصفاً ينعقُ البومُ وحده في أرجائها فلا تُلجئوني إلى ما أكره.

قبل الوفد المفاوضُ بهذه الشروط،وحلّ السّلام وعُقِدَ الصُّلح. فما كـاد موسى يبتعـدُ عنها، حتىّ عـادَ الفارّون منها،وشنّوا غارةً عـلى الجالية العربيّـة فيها، وقتلوا جميع أفرادِها. بلغ الخبرُ مـوسى وهوَ في طـريقِهِ إلى طليـطلة: فتـوقّف عن المسيرِ، وأرسـل إليهـا حملةً بقيادة ابنه عبد العزيز.

وصلتِ الحملةُ وهاجمتِ المدينـةَ ولم يطلِ الأمر

حتىّ سقطتْ بين يديْه فأباحَها لجندِه، فغنمـوا الغنائمَ الثمينة وضبطوا الممتلكاتِ، واستولوا على أموالِ كلٍّ مَنْ فيها، وتركوا فيها جاليةً قويَّة، تتمكّنُ مِنَ المقاومةِ والحِفاظِ عليها.

أرسـل موسى يستـدعي إلَيـه طـارقـاً،وهـو في منتصفّ الطريق بين ماردة وطليطلة. التقى الرجلان في مكان يقال لَهُ طلبيرة.

وكان موسى عاقدَ الحاجبين،عابس الوجه، وشرر الغضب يتطايرُ من عينيه السوداوين،وفي يمينه سوْط يعبث به.

ـ لماذا عصيتَ أوامري، يـا طارق، وتجـاوزتَ قرطبة؟ ألم أنْهَك عن ذلك؟

ـ بـلى، يـا مـولاي، ولكنّ الفتـحَ أغـراني، ففعلت.

وضع موسى السوط على رأس طارق وقال:

ـ واللّه، لولا شجاعتك وإخلاصك وفتوحك لكنتُ أدَّبْتَـك بهَذا السّـوط. أمـامَ قـادتِـكَ ولكنّي

سأمسك يدي عن هذا، وأبقي سوطي للأعداء.

ـ واللّه، يا موسى، ما قصدْتُ عصيانَك.

ـ بل فعلتَ، ولا يفيدُ الإنكارَ. فلو تجمَّعَتْ عليكَ الأُمَمُ، وتمكَّنتْ مِنْكَ، وأُفنتْ جيوشَك، أَكان بقيَ الفتح فتحاً.

ـ أدركتُ خطأي، وندِمْت على فعلتي.

ـ الإقرارُ بالخطأ فضيلة. أَلَمْ يبلغْك خبرُ عقبة بن نافع؟

ـ اعذرني، إنَّما أنا قائدٌ من قادتِك. فما أَصَبْتُ من نجاح، وفتحْتُ من بلدانٍ إنَّما هو منسوبٌ إليك.

ـ أيْن الأموال والنَّفائِسُ التي استوليت عليها؟

ـ جميعُها موفورة.

ـ آتني بها إذاً.

ـ أُسلِّمك إياها، متى وصلنا إلى طليطلة.

***

بعد مدّة وجيزة، دخلت الجيوش العربيّة المظفّرة طليطلة بقيادة موسى، وما إنْ استقرّ بهِ المقام حتىّ أَمرَ بإلقاء القبض على طارق، ورماه في السُّجن ولكنّ إقامته فيه لم تطلْ. قضي على القوط في معركة «السّواقي» قضاء نهائياً،فقرّر موسى أَنْ يقضي الشتاء في طليطلة، وينظّم ما أفاءَ اللّه عليه من بلاد.

أوفَدَ إلى الوليد سَفِيرينِ يطلعانه على ما تمّ أَحدهما مغيث الرومي الّذي على يده فتحت قرطبة والثاني علي بن رباح وهو رجلٌ صالح شارك في جميع الحملات المغربيّة والأندلسيّة. وصلا إلى دمشق،وبعد أنْ ألقيا التحيّة على الخليفة قال علي:

- تركَ موسى في الأندلس،وقد فتحَ ما لم يفتحْهُ أحدٌ. ودفع إليه كتاب موسى، فقرأَهُ . . . وبدَتْ على قسماتِ وجههِ علائمُ الإعجاب، وما إنْ أتى على آخرهِ حتى خرّ على ركبتيه ساجِداًوقال: «ربّي، لقد أَسبغْتَ علينا نعمَك وأَتيتَنا هذا النصرَ المبين، فنحمَدك، ونشكرُك راجينَ أن تنصرَنا دوماً على أعدائِنا، وتَشدّ من سواعد قادتنا وجنودنا، وتجعلهُم

دائماً متّحدين متحابينّ، لا يداخلُ قلوبَهم سوسُ التحاسُدِ والبغضاء، ولا يفكّرون إلّا بمجد أُمّتهم. لا تخذلْنا في ما نقوم به من أعمال، وجزْ عن أخطائنا، فأنت على كلّ شيء قدير».

وما إنْ انتهى الوليدُ من رفعه الشكر للّه حتىّ دخل صفيُّه عكرمةُ، وقد بلغَتْهُ أخبارُ انتصاراتِ موسى، فأقضْت مضجَعه. قرّر الرجل أنْ يحملَ علَيْه ويُغري الوليدَ به. كان الحسدُ يغلي في عروقِه ويمنع الكرى عن عينيْه.

ـ ما بالك، يا عكرمة، تبدو كأنّك ميت. هل أَصابك سوء أو نزلت بك نازلة؟ خذْ واقرأ.

ـ ما هذا، يا مولاي؟

ـ هذا كتاب موسى إلينا.

ـ وما فيه يا مولاي؟

ـ فيه أنّهُ قضى على القوط قضاءً مبرماً، ولن

تقوم لهم بعدَ الآن قائمة.

- وما فيه عن طارق، يا مولاي!

- طارق؟

- نعم، أَلَيْس هو الّذي اجتاح الأندلسَ وفتحَها حتًّى ما وراء طليطلة.

- بلى.

- وهل يخبرُكَ موسى في هذا الكتاب بكلّ شيء.

- اسألْ علياً، يا مولاي، أين طارق؟

- وما بال طارق؟

- خاطَرَ هذا القائد، يا مولاي، بنفسه وقاد العربَ بإقْدَامٍ وجرأة، إلى النّصر، وسيطر على الأندلس.

- يا علي،أين طارق؟

- يا مولاي عَصى طارقٌ أَوامرَ قائده الذي أوصاه

بأنْ لا يتغلغلَ في الأندلس، كي لا تتجمّعَ عليه جيوشُ الأعداء، فتتعرّض حياةُ العرب للخطر، والحملة للفشل.

ـ سألت أيْن طارق؟

ـ في السّجن.

ـ أين؟

ـ في طليطلة.

ـ قُلْ له، لدى عودتِك، ليطلق طارق، فما هكذا يكافأُ الأبطال. وسنكتب له في ذلك.

ـ أمْر مولاي.

لمّا انصرف الرسولان، التفتَ عكرمةُ إلى الوليد وقال:

ـ لَنْ يفوتَك شرُّ موسى، يا مولاي، وإنْ كلّمتك بهذا الشأن، فليس كرهاً به أو حسداً منه، إنّما غيرة منّي على الشرعيّة والخلافة.

ـ قلْ ما عندك.

ـ إنّ موسى ، قائدك هذا، أصبح لديه من الجيوش ما ليس لجميع أقاليم الخلافة مجتمعةً يقودُها إلى حيثُ يشاء.

هو يقلّد الخلفاء في كل الشؤون، فإنّه يستخلف أولاده على أغنى أقاليم المغرب وإسبانيا وآخرهم عبدالله، حاكم إقليم طنجه ومروان قائد الجيوش في الأندلس. عدا أنّهُ. . . قد طغى واستبدَّ وسجن طارق بن زياد بعد أَنْ أنّبَهُ وأهانه،ووضع السّوط على رأسه.

ـ أتعني أنّهُ سيستقلُّ بالمغرب والأندلس.

ـ ولماذا لا يفعل؟ مَنْ يستطيع أَنْ يمنعَه؟

ـ إنَّ رَجُلَكَ هذا شديدُ الطموح. . . يتطلَّعُ إلى أبعد من الأندلس.

وأخذ عكرمة، قطعة ذهبيَّة ودفعها إلى الوليد:

ـ ما هذه؟

ـ هذه قطعة ذهبيّة.

ـ ولماذا ترفعُها إلينا.

ـ قد جلبها لنا أحدُ العائدين من الأندلس، ليتأملّها مولاي. إنّها الدَّليل الواضح على نواياه السيِّئة، وعلى رغبتِهِ في الاستقلال عن الخلافة.

ـ لقد فوَّضناه في ذلك.

ـ وهل فوّضتَه، يا مولاي، في أن يضع اسمَهُ على أحدِ وجهي هذه القطعة؟ لقد سبق أنْ فعل هذا الأمرَ عندما سكَّ عملةَ المغرب، والعرف المتّبع أنْ لا تحمل العملةُ سوى رسمِ الخليفة.

ـ أيجب أن نمنعه عن ذلك؟

ـ نعم وأن تعاقبَه أيضاً.

ـ سنكتبُ له ونرى ما يكون، يا عكرمة.

٧ ـ غضب الخليفة سليمان على موسى

عصفت في صدر موسى ذلك الشيخ الشجاع رغبة في أنْ يقود جيوشه عبر جبال البرانس ويجتاح أوروبا كلها.

سار موسى وطارق، ففتحا أقاليم أرغونه وقشتالة وقطالونيا واستوليا على سرقسطة وبرشلونة.

ورغب موسى أن يكمل مسيرته المظفَّرة، ويتسلَّقَ البرانس، فأخذ القادة والجند يتهامسون:

ـ إلى أين يسيرُون بنا؟ حسبنا ما فتحنا. أليسَ لطموحِهِ من حدود؟ ما باله يأتي أمراً نهى عنه طارقا وسجنَه من أجله؟

وذات يوم تقدّم حنشُ النعماني إلى خيمَةِ موسى وقال:

ـ أيأذنُ لي موسى بالكلام؟

ـ قل ما تشاء.

أتتذكّر يا موسى، ما قلتَهُ ، يومَ دخلتَ أفريقيا؟ .

ـ نعم، لقد قلت: «ما بال عقبة بن نافع، قد غرّر بنفسه[٣٨] وبمن معه، حين توغّل في بلاد العدوّ، أما كان معه رجلٌ حكيم يرشدُه؟»أتَسْمحُ لي أنْ أكونَ رشيدَك اليوم؟ أيْنَ تذهب بنا: أتريد أنْ تفقد ما ربحْتَه بسَعْيك وراءَ ما يستحيل عليك؟ يرغب النّاسُ في السّلام والدّعة، ولم يعدْ أحدٌ يرغبُ في الفتوح والغنائم،وقد أتانا اللّه عزّ وجلّ ، أكثرَ مِمّا نستطيع. وقفز حنشُ النّعماني عن ظهر جواده،وأمسك بعنان جواد موسى. . .

إبتسم القائد الفاتح، وأجاب:

ـ قُدْني إلى حيثُ تشاء، يا حنش، أفادنا اللّه بنُصْحِك.

فلوى عِنانَ جواده باتّجاه الأندلسَ،فمشى موسى إليْها، وهو يقول:

ـ واللّه لو مشوا معي لقدتهُم إلى فتح روما.
وعاد الجيش إلى الأندلس،وفتح جليقيةَ وهكذا طاعت الأعاجِمُ فلاذوا بالسلم وبذلوا الجزية.
وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلّما مرَّ قومٌ منهم بموضعٍ واستَحْسَنوْهُ حطّوا به ونزِلوا قاطنين.

وفيما موسى في قلعة «للك» وصل رسولُ الوليد يستعجِلُه بالعودة.

اختار موسى إشبيلية، عاصمة للولاية الجديدة، واستخلف عليها ابنه عبد العزيز،وترك بجانبه حبيب بن أبي عبيدةَ أحدَ قادته، وهو صغير عقبه بنِ نافع، كما ترك معه أعيان العرب وقسماً من الجيش، وأبْحر من إشبيلية إلى أفريقية حيثُ استخلف عليها ابنَهُ عبدالله،وسار منها إلى مصرَ ففلسطينَ فدمشقَ،ومعه أولادُهُ عبدُ الأعلى وعبدُ الملك وطارق ومغيث ومئة

رجل من وجوهِ البربر،وعددٌ من أمراءِ القوط، وحمل معه نفائسَ مِنْ كلِّ بَلَد: «من بَزِّها ودوابها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى من كنوزِها وثرواتها، فأَقبل يجرّ الدُّنيا وراءَه جرّاً، ما لَمْ يسمعْ بمثلِهِ ولا بمثل ما قَدمَ به».

وفي هذه الأثناء، كان الوليدُ يعاني سكراتِ الموت، فأَرسل ولي عهده، أخوه سليمانَ، رسلاً إلى موسى، يأمرونَه بأَنْ لا يستعجل كي يحظى هوَ بالغنائم والتحف.

ولكنّ موسى أجاب رسل سليمانَ قائلاً:

إنْ فعلْتُ ذلك أَكون قد خُنْتُ وغَدَرْتُ، وما وفيت. والله لا أَتأخّر ولا أَتعجّلُ، ولكنّي أَظلُّ في مسيري، فإنْ وافيته حيّاً لم أتخلّفْ عنه، وإن سبقَني إليه قضاءُ الله، فأَمري وأَمره إلى الله.

وشاء الله أَنْ يصِل موسى دمشقَ،والوليدُ لا يزالُ على قيدِ الحياةِ، وكان يومِ جمعة والخليفة في الجامع مع كبراءِ القوم ووجوه القبائل والوزراء

والقادة. مشى موسى إليه ووراءه النبلاء والأعيانُ،وكلٌّ يرتدي حلّته المنسوجة بخيوط الذهب والمزيّنة بالحجارة الكريمة، وقد وضعوا تيجانهم على رؤوسهم.

وما إنْ قيل للوليد أنَّ موسى قد أقبل إلَيه حتىّ هبَّ واقفاً بالرغم من مرضه،وخرج مع مَنْ يرافقه من أَعيانٍ إلى باب المسجد لاستقباله،بينما علا صياحُ القوْم يشقُّ عَنانَ السّماء: «موسى، موسى».

وفي هذا الوقت بالذّات انسلَّ عكرمة من بين الجموعِ وتبعهُ سليمانُ ولي العهد الّذي كان مزمعاً أَن يتقلّد تبعاتِ الخلافة.

- أَرأيْتَ يا سليمان،كيف أنَّ موسى لم يُطِعْكَ في ما طلبت منه، وأَقبلَ يضعُ عندَ قدمي الوليد كلَّ نفائس وكنوز الدّنيا، استرضاءً له؟

لا يجعلُك هذا تَشكُّ بنزاهتِه وإخلاصِهِ. ألَا تعتقد أنّه يدبِّر أَمر استقلالِهِ ببلادَي المغرب والأندلس؟ ألَا تشيرُ الدلائلُ إلى ذلك، وقد عمد إلى استخلاف أولادِه على إشبيليةَ وطنجة والقيروان؟ أَهوَ

خليفة أم ملكٌ يوزِّع ممتلكاتهُ على أبنائِه وأعوانه.

ـ يداخلني الشّكُّ، يا عكرمة، في هذا الشيخ الطموح.

ـ ثمّ، يا مولاي، أيَّة قوّة تستطيع أَنْ تنتزع منه تلك الأقاليم النائية... بعد أَنْ تمَّت له السيطرة الكاملة عليها.

ـ وما باستطاعتي أَنْ أفعل الآن؟

وقرّر سليمانُ أنْ يجتمع بمغيث الرومي الّذي كان الخليفة عبدُ الملك قد عطف علَيْه وأولاهُ ثقتَهُ وربَّاه مع أولادِهِ وخاصَّةً الوليد وسليمان.

ولم يطلِ الأمر حتّى نفذ القدر بالوليد وأصبح سليمان خليفة، فأرسَلَ في طلبِ موسى الشيخ العجوز واتّهمه بعدّة إساءات أَقلّها أنّه وزّع الغنائمَ توزيعاً غير عادل على القادة والجند، وأنّه استغلّ نفوذه في سبيل الإثراءِ غير المشروع،وبسعيه الدّائبِ من أجل إضعافِ الخلافة والاستقلال بالمغرب، والأندلس. وأمره أنْ يضعَ تحت تصرُّف الخلافة جميع الغنائم

والنفائس والكنوز التي احتفظَ بها لنفسِهِ ولأولاده.

دافع موسى عن نفسِهِ دفاعاً يائساً، وطلب من سليمانَ أَنْ يسمحَ له بالعودَةِ إلى المغرب والأندلس قبلَ أَنْ تفسد الأمور هناك، إلّا أنّه لم يسمحْ له بذلك.

وعزّ على يزيد بن المهلب أن يوضع هذا المجاهد الكبير في الظّل، وأَنْ يُعْزَلَ عن شؤونِ الدَّولة الكبرى، وأثّر في نفسه ما لقيَه من الخلافة الأمويَّة من جحودٍ ومهانسةٍ، فقصدَهُ ذات ليلةٍ، وراح يسامِرُه ويضاحكهُ ويسري عَنْهُ[٣٩]، وسأَله.

ـ يا أبا عبد الرّحمن، كم عدد أهل بيتك ومواليك؟

أجاب موسى بِخُيَلاء[٤٠] وزهوٍ:

ـ لا أدري لهم عدداً.

ـ أيكون عشرة آلاف؟

ـ عشرة، فعشرة، فعشرة... إلى منقطع النفس.

ـ يا موسى، أتكونُ بهذه القوّة، وحواليك ما لا يحصى من المـوالي والمحبِّـينَ، وتلقـي بنفسـك في التهّلِكَة؟

ـ ماذا تريدني أنْ أفعل؟

ـكيف أتيتَ ورميتَ نفسَـك بـين أيـدي سليمـانَ؟ ألم يكن باستطاعتك،وأنت مـالك المغـرب والأندلس، أنْ تبقى فيها مكرّما.

ـ والله، يـا يـزيـد، إنّ البـلادَ الّتي فتحتُهـا، والرجال الّذين استملكتهم، لا يعرفـون سواي، ومـا حصلْتُ عليه من ذخائرَ وكنوزٍ إنّمـا هو في سبيـلِ مجدِ هـذه الأمّة الّتي أنـا منها، ولـو علمت حقّ العلم، أنّ الـوليد وسليمـانَ لن يرحمـاني وستنزِلُ بي المكـارِه على أيـديْهما لمـا تـردّدت في المجيء إليهـما. والله لـو أردْتُ الامتناع،لما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكنّي لم أرَ الخروج عن الطاعة،ولا الانفصالَ عن الجماعـةِ وقد آثـرت الله على الجميع.

ـ والآن ما الّذي تنوي أنْ تفعل؟

- إنّي لن أخرجَ عن إرادةِ مولانا الخليفة، وسأطيعُه في كلّ ما يأمرني به.

- كَلأكَ الله بعينِ الرّضى، هكذا تنهض الأمَمُ، على هِمَمِ رجالٍ أمثالك، لا يجذبهم غنىً، ولا يبطرُهم مجد، ولا يستهوِيهم مركز.

ولم يطلِ الأمر بعد ذلك حتّى توارى وجه فاتح، من أشدّ وجوه القادةِ العرب إشراقاً.

شرح المفردات

١ - امْتَشَق: أخرج السّيف.
٢ - عجرفتهم: كبرياؤهم.
٣ - لا قِبَل له: لا يستطيع، لا يقوى.
٤ - الناجزة: المنتهية، الخالصة.
٥ - حنكة: تجربة وبَصَر بالأمور.
٦ - يجيره: يُغيثه، يُساعده.
٧ - مآزرة: مناصرة، مساعدة.
٨ - الخراج: الضريبة التي تُؤخذ من أموال الناس.
٩ - وَجِل: خائف.

١٠ ـ الموبقات: المعاصي.
١١ ـ سعوا بي: وشوا بي، ونّموا علي.
١٢ ـ الطويّة: النيّة.
١٣ ـ حَدَث: يافع، في أول الشباب.
١٤ ـ الألَدّ: الأكثر عداء وخاصمة.
١٥ ـ متوانٍ: متقاعِس، متكاسِل.
١٦ ـ قاعد عن الفتح: لا يقوم به.
١٧ ـ أُربَتْ: زادت.
١٨ ـ عضدي: مساعدي.
١٩ ـ الجسام: العظيمة.
٢٠ ـ فَلْيَحْجم: فليمنع.
٢١ ـ أريم: أريد، أبتغي.
٢٢ ـ الهلع: الخوف الشديد.
٢٣ ـ وطرنا: حاجتنا، مأربنا.
٢٤ ـ شأفة: أصل ومَنْبع.
٢٥ ـ غَدا: أصبح.
٢٦ ـ أَسْدى: قَدَّم.
٢٧ ـ صفيّه: صديقه المخلص.
٢٨ ـ أتباع: أنصار، أزلام.
٢٩ ـ ملاذ: ملجأ.
٣٠ ـ مدد: عون، مساعدة.
٣١ ـ أقواته: أطعمته.
٣٢ ـ يحفّ به: يحيط به.
٣٣ ـ جلُّها: معظمها.
٣٤ ـ شِيَم: مناقب، خصال حيدة
٣٥ ـ كورة: بقعة تجتمع فيها مساكن وقرى.
٣٦ ـ نيباً: مفتوحة، متروكة.
٣٧ ـ ديّة: ثمن الدم.
٣٨ ـ غَرَّر بنفسه: أطمعها بالباطل
٣٩ ـ يسري عنه: يسلّيه، يُخَفّف أحزانه.
٤٠ ـ خُيلاء: تكبُّر وفخر.

صدر من سلسلة «من أبطال العرب»

١ ـ موسى بن نصير
٢ ـ عقبة بن نافع

دار جروس للنشر والتوزيع
ص.ب ١٨٩ طرابلس ـ لبنان